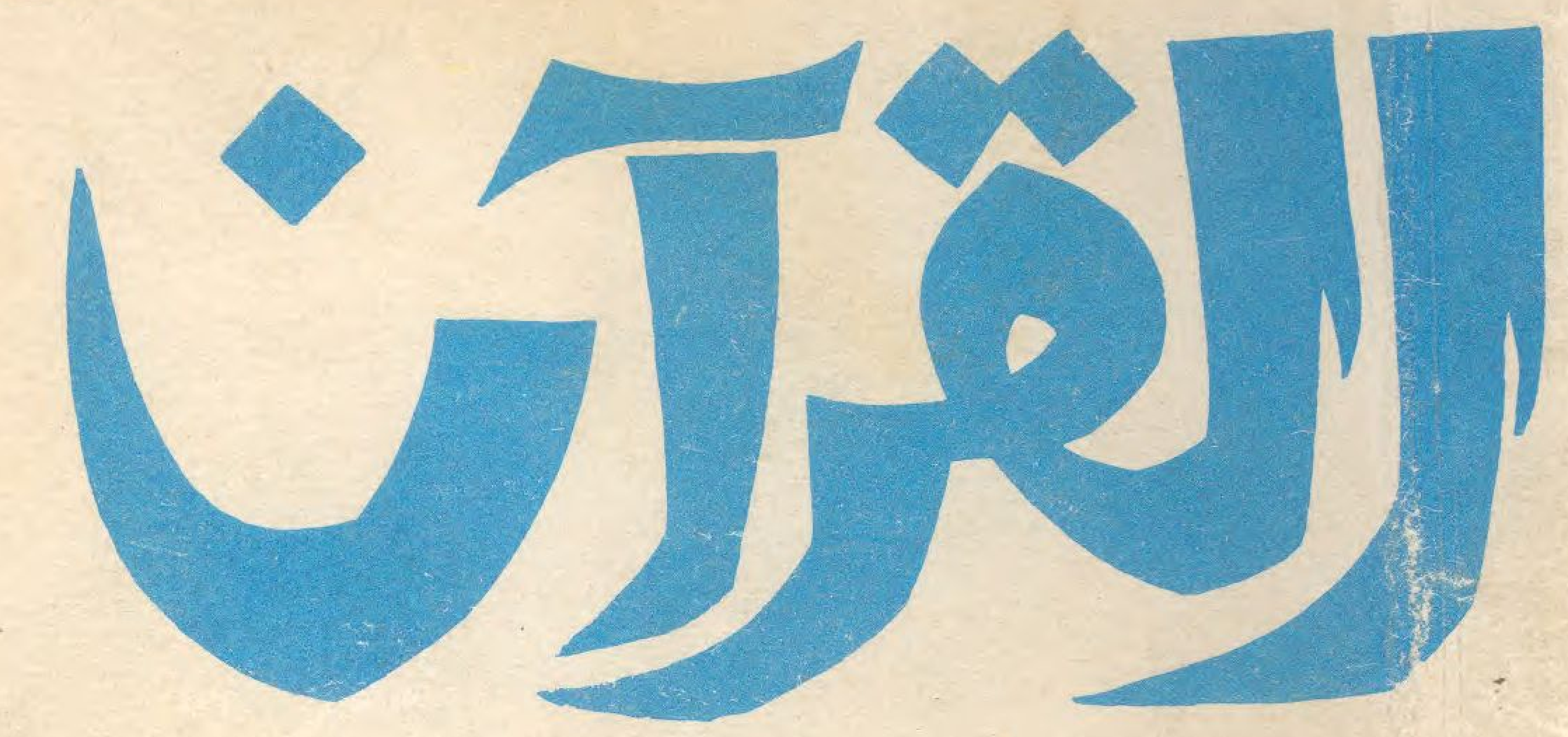
مصطفى محمود



محاولة لفهم عصرى للقرآن

اهداءات ٢٠٠١

ا.د. محمـــود ديـــــاب

جراح بالمستشفى الملكي المصري



محاولة لفهم عصري للقرآن

مصطفى محمود

« ان فى ذلك لـذكرى لمن كان له
قلب أو ألقى السمع وهو شهيد »

« قرآن كريم »

المعمار القرآنى

كان أول لقاء لى مع القرآن وأنا فى الرابعة من العمر طفلا أجلس فى صف بين عدة صفوف فى كتاب الشيخ محمود أحملق فى بلاهة الى سبورة والى مؤشر يتحرك فى يد الشيخ على كلمات منقوشة بالطباشير وهو يتلو .. « **والضحى والليل اذا سجى** » .. فنردد خلفه فى آلية .. « **والضحى والليل اذا سجى** » .. لا نفهم من الكلام حرفا .. ولا نعلم ما الضحى ولا كيف سجى . ولكننا نردد مجرد مقاطع ومخارج حروف .

وكان عقلى آنذاك صفحة بيضاء نقية لم يكتب عليها شىء ولم تتلق تأثيرا تربويا خاصا فقد نشأت فى أسرة كل فرد فيها متروك لحاله .. يحب ما يحب ، ويكره ما يكره ، ويلعب حتى يشبع لعبا . وأذكر أنى رسبت فى السنة الاولى ثلاث سنوات دون أن أتلقى تعنيفا .. وكان الصفر بالقلم الاحمر يزين كل صفحة من كراساتى مرة بعد مرة فلا يثير الا الضحك . وكانوا اذا سألونى ماذا أخذت اليوم ، كنت أقول اختصارا للمهزلة وحتى لا أعود الى شرح حكاية الصفر اليومى التى أصبحت بالنسبة لى مملة .. كنت أقول .. زى العادة .. وكانوا يضحكون .

هكذا كانت تجرى الامور فى بيتنا ، لا ارغام على المذاكرة . ولا قهر على تدين .. وانما لكل حياته .. وعلى كل تبعته .

لم نعرف غسيل المخ الذى عرفه كثير من الاطفال فى أسر متزمتة تحشر العلم والدين حشرا فى عقول أطفالها بالكرباج والعصا .

كنت اذن أتلقى أول عبارة من القرآن بذهن أبيض تماما ودون تأثير مسبق مثلما أتلقى دروس الحساب والجغرافيا والانشاء .

وكما بهرتنى حكاية الكرة الارضية المدورة والقارات كالجزر سابحة فيها ، وكما بهرتنى حكاية القمر يدور حول الارض ، والارض حول الشمس .. والكل معلق فى السماء ، كذلك فعل بى القرآن شيئا .

وأحار فى وصف الشعور الذى تلقيت به أول عبارة فى القرآن .

ولا أجد الكلمات لتشرح هذا النوع من الاستقبال النفسى الغامض .. وكيف كانت الكلمات تعود من تلقاء نفسها فتراود سمعي وذاكرتيوأنا وحدى فأرانيأردد بلا صوت .. « **والضحى والليل اذا سجى** »

وتقتحم على العبارة القرآنية سكون طفولتى فأتذكر فى ظلام الليل القاء الشيخ وهو يردد : « **وجاء من اقصى المدينة رجل يسعى** »

تسعى العبارة الى خيالى وكأنها مخلوق حى مستقل له حياته الخاصة .

وقطعا أنا لم أكن أعلم ما الضحى ولا كيف سجى الليل .. ولا من هو الرجل الذى جاء من أقصى المدينة يسعى .

ولعل المقاطع كانت تتردد فى سمعى اشبه بمقاطع سلم موسيقى .. (صول لاسى دو رى مى فا) .. مجرد حروف

لا معنى لها ولا وقع سوى مدلولها الموسيقى ٠٠ مجرد نغم ومازورات موسيقية وايقاع يطرب الوجدان ٠

نعم ٠٠ لقد اكتشفت منذ تلك الطفولة البعيدة دون أن أدرى حكاية الموسيقى الداخلية الباطنة فى العبارة القرآنية ٠

وهذا سر من أعمق الاسرار فى التركيب القرآنى ٠٠ انه ليس بالشعر ولا بالنثر ولا بالكلام المسجوع ٠٠ وانما هو معمار خاص من الالفاظ صفت بطريقة تكشف عن الموسيقى الباطنة فيها ٠

وفرق كبير بين الموسيقى الباطنة والموسيقى الظاهرة ٠

وكمثل نأخذ بيتا لشاعر مثل عمر بن أبى ربيعة اشتهر بالموسيقى فى شعره ٠٠ البيت الذى ينشد فيه :

قال لى صاحبى ليعلم مابى

أتحب القتول أخت الرباب

أنت تسمع وتطرب وتهتز على الموسيقى ٠٠ ولكن الموسيقى هنا خارجية صنعها الشاعر بتشطير الكلام فى أشطار متساوية ثم تقفيل كل عبارة تقفيلا واحدا على الباء الممدودة ٠

الموسيقى تصل الى أذنك من خارج العبارة وليس من داخلها ٠ من التقفيلات (القافية) ٠٠ ومن البحر والوزن ٠ أما حينما تتلو :

« والضحى والليل اذا سجى »

فأنت أمام شطرة واحدة ٠٠ وهى بالتالى تخلو من التقفية والوزن والتشطير ، ومع ذلك فالموسيقى تقطر من كل حرف فيها ٠ من أين ، وكيف ؟

هذه هى الموسيقى الداخلية ٠

الموسيقى الباطنة ٠

سر من أسرار المعمار القرآني لايشاركه فيه أى تركيب أدبى وكذلك حينما تقول :

« الرحمن على العرش استوى »

(طه ـ ٥)

وحينما تتلو كلمات زكريا لربه :

« قال رب انى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا ولم أكن بدعائك رب شقيا »

(مريم ـ ٤)

أو كلمة الله لموسى :

«ان الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى »

(طه ـ ١٥)

أو كلمته تعالى وهو يتوعد المجرمين :

« انه من يأت ربه مجرما فان له جهنم لايموت فيها ولا يحيا »

(طه ـ ٧٤)

كل عبارة بنيان موسيقى قائم بذاته تنبع فيه الموسيقى من داخل الكلمات ومن ورائها ومن بينها بطريقة محيرة لا تدرى كيف تتم ٠

وحينما يروى القرآن حكاية موسى بذلك الأسلوب السيمفونى المذهل :

ولقد أوحينا الى موسى أن أسر بعبادى فاضرب لهم طريقا فى البحر يبسا لاتخاف دركا ولا تخشى فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ماغشيهم وأضل فرعون قومه وما هدى »

(طه - ٧٧ - ٧٨ - ٧٩)

كلمات فى غاية الرقه مثل « يبسا » أو لاتخاف «دركا» بمعنى لاتخاف ادراكا ·

ان الكلمات لتذوب فى يد خالقها وتصطف وتتراص فى معمار ورصف موسيقى فريد هو نسيج وحده بين كل ماكتب بالعربية سابقا ولاحقا ·

لا شبه بينه وبين الشعر الجاهلى ولا بينه وبين الشعر والنثر المتأخر ولا محاولة واحدة للتقليد حفظها لنا التاريخ رغم كثرة الاعداء الذين أرادوا الكيد للقرآن ·

فى كل هذا الزحام تبرز العبارة القرآنية منفردة بخصائصها تماما ·· وكأنها ظاهرة بلا تبرير ولا تفسير سوى أن لها مصدرا آخر غير مانعرف ·

اسمع هذا الايقاع المنغم الجميل :

« رفيع الدرجات ذو العرش يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق »

(غافر - ١٥)

« فالق الحب والنوى يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى »

(الانعام - ٩٥)

« فالق الاصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا »

(الانعام - ٩٦)

« يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور »

(غافر ـ ١٩)

« لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار »

(الانعـام ـ ١٠٣)

« وسع ربنا كل شيء علما »

(الاعراف ـ ٨٩)

ثم هذه العبارة الجديدة فى تكوينها وصياغتها .. العميقة فى معناها ودلالتها على العجز عن ادراك كنه الخالق :

« عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال »

(الرعد ـ ٩)

« يجادلون فى الله وهو شديد المحال »

(الرعد ـ ١٣)

ثم هذا الاستطراد فى وصف القدرة الإلهية :

« وعنده مفاتح الغيب لايعلمها الا هو ويعلم مافى البر والبحر وما تسقط من ورقة الا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الارض ولا رطب ولا يابس الا فى كتاب مبين »

(الانعـام ـ ٥٩)

ولكن الموسيقى الباطنية ليست هى كل ماانفردت به العبارة القرآنية ، وانما مع الموسيقى صفة أخرى هى الجلال .

وفى العبارة البسيطة المقتضبة التى روى بها الله نهاية قصة الطوفان تستطيع أن تلمس ذلك الشيء « الهائل » « الجليـــل » فى الالفاظ :

« وقيل يا أرض ابلعى ماءك وياســماء أقلعى وغيض الماء وقضى الامر »

(هــود ـ ٤٤)

تلك اللمسات الهائلة ·· كل لفظ له ثقـل الجبال ووقع الرعود ·· تنزل فاذا كل شيء ·· صمت ·· سكون ، هدوء ، وقد كفت الطبيعة عن الغضب ووصلت القصة الى ختامها :

« وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء اقلعي وغيض الماء وقضي الأمر »

(هـــود ـ ٤٤)

انك لتشعر بشيء غير بشرى تماما فى هذه الالفاظ الهائلة الجليلة المنحوتة من صـــخر صوان وكأن كل حرف فيها جبل الألب ·

لايمكنك أن تغير حرفا أو تستبدل كلمه بأخرى أو تؤلف جملة مكان جملة تعطى نفس الايقاع والنغم والحـركة والثقل والدلالة ·· وحاول وجرب لنفسك فى هذه العبارة البسيطة ذات العشر كلمات أن تغير حرفا أو تستبدل كلمة بكلمة ·
ولهذا وقعت العبارة القرآنية على آذان عرب الجاهلية الذين عشقوا الفصاحة والبلاغة وقع الصاعقة ·

ولم يكن مستغربا من جاهلى مثـل الوليد بن المغيرة عاش ومات على كفره أن يذهل ولا يستطيع أن يكتم اعجابه بالقرآن رغم كفره فيقول وقد اعتبره من كلام محمد :

« والله ان لقوله لحلاوة ، وأن عليه لطلاوة ، وأن أعلاه لمثمر ، وأن أسفله لمغدق ·· وانه ليعلو ولا يعلى عليه » ·

ولما طلبوا منه أن يسبه قال :

« قولوا ساحر جاء بقول يفرق بين المرء وأبيـه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجته ، وبين المرء وعشيرته » ·

انه السحر . حتى على لسان العدو الذى يبحث عن كلمة يسبه بها .

واذا كانت العبارة القرآنية لاتقع على آذاننا اليوم موقع السحر والعجب والذهول ، فالسبب هو التعود والالفة والمعايشة منذ الطفولة والبلادة والاغراق فى عامية مبتذلة أبعدتنا عن أصول لغتنا .. ثم أسلوب الأداء الرتيب الممل الذى نسمعه من مرتلين محترفين يكرون السورة من أولها الى آخرهابنبرة واحدة لايختلف فيها موقف الحزن من موقف الفرح من موقف الوعيد من موقف البشرى من موقف العبرة . نبرة واحدة رتيبة تموت فيها المعانى وتتسطح العبارات .. وبالمثل بعض المشايخ ممن يقرأ القرآن على سبيل اللعلعة دون أن ينبض شىء فى قلبه .. ثم المناسبات الكثيرة التى يقرأ القرآن فيها روتينيا .. ثم الحياة العصرية التى تعددت فيها المشاغل وتوزع الانتباه وتحجر القلب وتعقدت النفوس وصدئت الارواح .

ورغم هذا كله فان لحظة صفاء ينزع الواحد فيها نفسه من هذه البيئة اللزجة ويرتد فيها طفلا بكرا وترتد له نفسه على شفافيتها كفيلة بأن تعيد اليه ذلك الطعم الفريد والنكهة المذهلة والايقاع المطرب الجميل فى القرآن .وكفيلة بأن توقفه مذهولا من جديد بعد قرابة ألف وأربعمائة سنة من نزول هذه الآيات وكأنها تنزل عليه لساعتها وتوها .

اسمع القرآن يصف العلاقة الجنسية بين رجل وامرأة بأسلوب رفيع وبكلمة رقيقة مهذبة فريدة لاتجد لها مثيلا ولا بديلا فى أية لغة :

« **فلما تغشاها حملت حملا خفيفا** »

(**الأعراف ــ ١٨٩**)

هذه الكلمة « تغشاها » .. تغشاها رجلها .

أن يمتزج الذكر والانثى كما يمتزج ظلان وكما يغشى الليل النهار وكما تذوب الالوان فى بعضها البعض ، هذا اللفظ العجيب الذى يعبر به القــــرآن عن التداخل الكامل بين اثنين هو ذروة فى التعبير ٠

وألفاظ أخرى تقرؤها فى القرآن فتترك فى السـمع رنينا وأصداء وصورا حينما يقسم الله بالليل والنهار فيقول :

« والليل اذا عسعس والصبح اذا تنفس »

(التكوير ـ ١٧ ـ ١٨)

« عسعس » ٠٠ هذه الحروف الاربعة هى الليل مصورا بكل مافيه ٠ « والصبح اذا تنفس » ان ضوء الفجر هنا مــرئى ومسموع ٠٠ انك تكاد تسمع سقسقة العصفور وصـــيحة الديك ٠

فاذا كانت الآيات هى نذير الغضب واعـــلان العقاب فانك تسمع الألفاظ تتفجر ٠٠ وترى المعمار القرآنى كله له جلجلة ٠ اسمع مايقول الله عن قوم عاد :

« وأما عاد فاهلكوا بريح صرصر عاتية ســخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية »

(الحاقة ـ ٦ ـ ٧)

ان الآيات كلها تصر فيها الرياح وتســمع فيهــا اصطفاق الخيام وأعجاز النخل الخاوى وصورة الأرض الخراب ٠

والصور القرآنية كلها تجدها مرسومة بهـــذه اللمسات السريعة والظلال المحكمة والالفاظ التى لها جــرس وصــوت وصورة ٠

ولهذه الاسباب مجتمعة كان القرآن كتابا لايترجم ٠

انه قرآن فى لغته ٠٠ أما فى اللغات الاخرى فهو شىء آخر

غير القرآن ‥ « **انا أنزلناه قرآنا عربيا** » وفي هذا تحـــديد فاصــل ٠

وكيف يمكن أن تترجم آية مثل :

« **الرحمن على العرش استوى** »

(طه ـ ٥)

اننا لسنا أمام معنى فقط ‥ وانما نحن بالدرجة الاولى أمام معمار ‥ أمام تكوين وبناء موسيقى تنبع فيه الموسـيقى من داخل الكلمات ، من قلبها لامن حواشيها ، من خصائص اللغة العربية وأسرارها وظلالها وخوافيها ٠

ولهذا انفردت الآية القرآنية بخاصية عجيبة ‥ انها تحدث الخشوع في النفس بمجــرد أن تلامس الاذن وقبــل أن يتأمل العقل معانيها ‥ لانها تركيب موسيقى يؤثر فى الوجـــدان والقلب لتوه ومن قبل أن يبدأ العقل فى العمل ٠

فاذا بدأ العقل يحلل ويتأمل فانه سوف يكتشف أشــياء جديدة وسوف يزداد خشوعا ‥ ولكنها مرحلة ثانية ‥ قد تحدث وقد لاتحدث ‥ وقد تكشف لك الآية عن سرها وقد لاتكشفه ‥ وقد تؤتى البصيرة التى تفسر بها معانى القرآن وقد لاتؤتى هذه البصيرة ‥ ولكنك دائما خاشع لأن القرآن يخاطبك أولا كمعمار فريد من الكلام ‥ بنيان ‥ فورم ‥ طراز من الرصف يبهر القلب ‥ ألقاه عليك الذى خلق اللغة ويعرف سرها ، وليس أبدا محمد النبى الأمى الذى كان يرتجف كما ترتجف أنت والوحى يلقى عليه بالآية : « **اقرأ باسم ربك الذى خلق** » فيرتجف ويتصبب عرقا ولا يعرف من أى سماوات يلم به هذا الصوت الآمر ‥ وهو يلوذ بزوجته خديجة وهو مايزال يرتجف فرقا لما سمع وقد بات يخشى على نفسه الجنون فتطمئنه خديجة بصوتها الحانى هامسة :

« والله مايخزيك الله أبدا .. انك لتصل الرحم .. وتحمل الكل . وتكسب المعدوم .. وتقرى الضـــيف ، وتعين على نوائب الحق » .

وينقطع عنه الوحى سنتين بعد هذه الكلمات القليلة الاولى. ويتركه فى حيرة .. يذرع دروب الصحراء الملتهبة يكاد يجن من أمر هذا الصوت الذى نزل عليه ثم انقطع عنه .

ولو كان محمد مؤلفا لألف فى هاتين السنتين كتابا كاملا .

ولكنه لم يكن أكثر من مستمع أمين سمع كما تســمع انت تلك الكلمات ذات الموسيقى العلوية فى لحظة صفاء وجلاء فذهل كما تذهل وصعقت حواسه أمام هذا التركيب الفريد المضىء.

وبعد سنتين من الصمت عاد الصوت ليهتف فى أذنه :

« **ياأيها المدثر قم فأنذر** »

(المدثر - ١ - ٢)

ثم بدأت آيات القرآن تنزل متوالية .

ولم يكن محمد من أدعياء المعجزات .

ويوم دفن ولده الوحيد ابراهيم حدث كسوف كلى للشمس فسره الناس على أنه معجزة ومشاركة من الطبيعة لحزن محمد فقال محمد كلمته المشهورة :

« ان الشمس والقمر آيتان من آيات الله لاينكســفان لموت أحد ولا لحياته » .

ولو كان فى طبعه الادعاء لالتمس فيما حدث سببا للدعاية لنفسه ، ولكنه كان الصادق الأمين من أول يوم فى حياته الى آخر يوم .

والوحى يلقى الى محمد بمالا يعلم محمد .

« ذلك من أنباء الغيب نوحيه اليك ، وما كنت لديهم اذ يلقون أقلامهـــم أيهم يكفـل مريم وما كنت لديهـم اذ يختصمون » ٠

(آل عمران ـ ٤٤)

« تلك من أنباءالغيب نوحيها اليك ماكنت تعلمها انت ولا قومك من قبل هذا فاصبر أن العاقبة للمتقين »

(هـود ـ ٤٩)

وهو يلقى اليه بأسرار فى التوراة والانجيـل ٠٠ ولم تكن هذه الكتب قد ترجمت الى العربيه فى ذلكالعصر البعيد (وأول نص مسيحى ترجمالى العربية هو مخطوط بمكتبة القـديس ببطرسبرج كتب حوالى عام ١٠٦٠ ميلادية) ٠ كانت هـذه الكتب أسرارا عبرية لايعرفها الا أصحابها ٠

وهو يتحدى اليهود بأن يخرجوا مخطوطاتهم ويقرأوها :

« قل فأتوا بالتوراة فاتلوها ان كنتم صادقين »

(آل عمران ـ ٩٣)

ثم هو يصحح بعض تفاصيل التوراة ٠

ففى رواية التوراة لقصة يوسفيقول النص ان أخوةيوسف استخدموا فى سفرهم « الحمير» والقرآن يروى انهم استخدموا « العير » وهى الابل ٠

والحمار حيـوان حضرى عاجـز عن أن يجتاز مسـافات صحراوية شاسعة لكى يجيىء من فلسطين الى مصر ٠٠ وحكاية العير هى حكاية أدق وأصدق :

الم يلعن أرميا : « أقلام النساخ الكاذبة » ٠

ان الوحى يلقى على محمد مالايعلمه محمد لا هو ولاأصحابه ولا قومه ولا نساخ التوراة وحفاظها ٠٠ ثم هو يلقى عليــه من فواتح السور ماهو أشبه بالشفرة والألغاز مثل ٠٠ كهيعص ٠ طسم ٠٠ حم ٠٠ عسق ، مما لم يقـــل لنا النبى انه يعلم له تفسيرا ٠

ولو أن محمدا هو الذى وضع القرآن لبث فيه أشـــجانه وحالاته النفسية وأزماته وأحزانه ٠٠ والقرآن غير هذا تماما٠ فهو يبدو من البدء الى النهايه معزولا عن النفس المحمدية بما فيها من مشاغل وهموم ٠٠ بل أن الآية لتنزل مناقضة للارادة المحمدية :

« ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى اليك وحيــه »
(طه - ١١٤)

كل هذا يضع أمامنا القرآن كظاهرة متعاليــة معزولة عن النفس التى أخبرتنا بها ٠٠ فهى لا أكثر من واسطة ســـمعت فأخبرت ٠

أما القرآن ذاته فهو ـ لفظـا ومعنى ـ من الله الذى أحاط بكل شىء علما ٠

مخيرام مسير

القرآن معمار فريد ٠٠ نسيج وحده ٠٠ فى الطريقة التى تصف بها الالفاظ فى رصف خاص يفجر ما بداخلها من نغم ، وهو نغم لا ينبع من حواشى الكلمات وأوزانها وقوافيها وانما من باطنها بطريقة محيرة مجهولة تماما ٠٠ وبطريقة تؤدى الى خشوع المستمع وادراكه الغامض للمصدر الجليل الذى جاءت منــه ٠

فنحن نصبح أسرى للقرآن بمجرد الاستماع اليه ٠٠ وقبل أن نتعقل كلماته ، فاذا بدأنا نتأمل ونتعقل ونحلل ونعكف على الكلمات فسوف تنفتح لنا كنوز من المعانى والمعارف والافكار تحتاج الى مجلدات لشرحها ، ولذلك سوف أكتفى بوقفــات قليلة أمام بعض المشــكلات الازلية ٠٠ كيف تناولها القرآن وماذا قال فيها ٠

وأولها مشكلة الحرية ٠

والحرية ثغرة كبيرة يدخل منها الشك ويتسلل منها هواة الجدل من الملحدين ٠٠ فأول ما يقوله الواحد منهم ليقيم الحجة على الدين كله أن يهتف محتجا ٠

« اذا كان الله قدر على أفعالى . فلماذا يحاسبنى ؟ » .
«واذا كان كل شيء يجرى فى الدنيا بمشيئة الله فما ذنبى ؟»
والسؤال يطرح معضلة بالفعل .

وقد أوصى النبى أصحابه بعدم الدخول فى جدل .

وقال لهم : اذا جاء ذكر القدر فأمسكوا .

لأنه علم أن المعضلة من المعضلات الفلسفية العاليـــة التى لا يتيسر الرد عليها بعلوم عصره .. وان الجدل سوف ينزلق بهم الى متاهة يضيعون فيها .. ولذا فضل الايمان بالقلب على الثرثرة العقلية العقيمة .

وهى وصية لا تنسحب تماما على عصرنا ، الذى دخلت فيـه الفلسفة الجامعات وأصبحت درســا ميسرا يتلقاه ابن العشرين كل يوم .

وبذلك أصبح السؤال مطروحا بشــدة .. وفى حاجة الى جواب ورد شاف من الفلسفة ومن الدين ومن صميم القرآن ذاته .

●●●

ومن النظرة المبدئية للعالم بما فيه من أرض وســـماوات ونجوم وكواكب ترى انه يقوم على سلسلة محكمةمن الاسباب والمسببات وان كل شيء فيه يجرى بنظام محكم .. وان كان لديك ورقة وقلم فانك تستطيع أن تحسب بالضبط متى تشرق الشمس ومتى تغرب ، لانها تتحرك حسب قانون .. وكل شيء فى الدنيا يتحرك حسب قانون .

الا الانسان .. فانه يشعر انه يمشي على كيفه .

الانسان وحده هو الحر المتمرد الثائر على طبيعته وظروفه ، ولهذا يصطدم بالعالم ويصارعه .. ويستحيل فى أى لحظة أن تتنبأ بمصيره .

وحكاية الحتمية الداخلية التي تصورها فرويد فاعتبر الارادة بسببها حرة في الظاهر لكن مقيدة في الباطن وأسيرة لجبرية الغرائز وآلية الحوافز الباطنة .. عاد هو ذاته فنقضها فقال ان الغريزة هي خام غفل تتصرف فيه الارادة بالكبت أو بالاطلاق أو بالتسامي .

وهكذا عادت الغريزة لتصبح مجرد ظرف تتحكم فيه الارادة كما تتصرف الارادة في الظروف الخارجية وتتحكم فيها ..

وأصبحت الارادة بهذا المعنى حقيقة متعالية متجاوزة للغرائز .

وبالمثل حكاية الحتمية الطبقيـــة التى أثارها المـاديون .. فاعتبروا كل انسان ابن طبقته .. تحدد له طبقته حـــوافزه النفسية وعواطفه ورغباته وشخصـــيته السلوكية .. فهو يتصرف كنبيل أو كاقطاعي أو كبروليتارى لا كفلان الفلانى . بل هو لايكاد يملك نفسا فما يتخيل انه نفس مستقلة بداخله ، ماهي فى الحقيقة الا مجموعة من الانمـاط السـلوكية التى استعارها من طبقته .. انها الحتمية الطبقية تعمل من خلاله . وما هو الا وسيط تظهر من خلاله القوى الاجتماعية اللامعقولة فى تصارعها .

وهى نظرة أوقعت الفكر المادي وعلم النفس الطبقى فى أشد التناقض .. فكيف نفسر سلوك رجل مثل تولستوى وهو من النبلاء الاقطاعيين بحكم الوراثة وهـو مع ذلك لم يتصرف أبدا كنبيل ولا كاقطاعى بل تصرف كطليعة الفقراء والفـلاحين محطما بذلك تلك الحتمية التي اسمها «علم النفس الطبقى» .

وبالمثل باكونين وكروبتكين طليعة الفوضوية وكانا من كبار الاعيان . وماركس ذاته ابن الطبقة البورجوازية الذى انقلب على الطبقة البورجوازية .

وماذا نقول عن الفلاح الذى يهمل تنقية الدودة فى مزرعـة تعاونية .. والعامل الذى يهمل صيانة الاتوبيسات فى قطاع عام .

ان هذه الحتمية التى تصورها علم النفس الطبقى هى كـلام غير دقيق وغير علمى .

والحقيقة أن النفس الانسانية انفردت دون صنوف الوجود المادى ، بأنها تملك قدرة داخلية على التملص من الـ .. لابد واللازم .. والضرورى .. والمحتوم .. وان الارادة الانسانية لها حريتها فى أن تخل باى تعاقد .. ويستحيل التنبؤ بمـــا يجرى فى منطقة الضمير .. لأنها منطقة حرة بالفعل .

لا شىء يحول بين الانسان وبين أن يضمر شيئا فى نفسه . انه المخلوق الوحيد الذى يملك ناصية أحلامه .

ولكن هذه الحرية البكر الطليقـــة فى الداخل ما تلبث أن تصطدم بالعالم حينما تحتك به لاول مرة فى لحظة الفعل .

ان رغبتنا تظل حرة مادامت كامنة فى الضمير والنيــة .. فاذا بدأنا التنفيذ اصطدمنا بالقيود .. وأول قيد نصطدم به هو جسدنا نفسه الذى يحيط بنا مثل الجاكتة الجبس ويحاصرنا بالضرورات والحاجات ويطالبنـــا بالطعـــام والشراب ليعيش ويستمر ولا نجد مهربا من تلبية هذه المطالب .. فنجرى خلف اللقمة ونلهث خلف الوظيفة ونضيع فى صراع التكسب ونفقد بعض حريتنا .. بعضها وليس كلها .. وهو ثمن ضرورى . فرغباتنا لا تستطيع أن تعلن عن نفسها بدون جسد ،وجسدنا هو أداة حريتنا كما أنه القيد عليها . وليس جســدنا وحده بل أجساد الاخرين أيضا أدواتنا ، فنحن ننتفع بما يصـــنعه العامل وما يزرعه الفـــلاح وما يخترعه المخترع وما يكتبـــه الكاتب وكل هذه ثمار أجساد الآخرين وحرياتهم .

ان المجتمع أداة هائلة موضوعة فى خدمتنا بما فيه من بريد ومواصلات ونور ومياه وصناعات وعلوم ومعارف .

وحينما يركب أحدنا قطـــارا فانه يركب فى نفس الوقت على حرية جاهزة أعدها له آلاف العمال والمهندسين والمخترعين وهو يدفع فى مقـابل هذا الكســب ضريبة من حريته .

وليس المجتمع وحده هو الذى يتقاضاه ضرائب ولكن الكون كله .. جاذبية الارض وضغط الهواء ومياه المحيطات والسماء بكواكبها .. كلها تحاصره وتحاصر حريته وتطالبه بنوع من الوفاق معها .

وهو بالوفاق يربح حريته دائما .

بالوفاق مع العالم يمتطيه كما يمتطى الجواد .

فهو حينما يفطن الى اتجاه الريح ويضع شراعه فى مواجهتها يمتطى الريح ويسخرها لخدمتـــه .. وحينمـا يفطن الى أن الخشب أخف من الماء ، ويصنع مركبا من الخشب يمتطى الماء .. وبالمثل حينما يفطن الى نفع الناس ويسير فى اتجاههم يكسب الناس ويكسب معونتهم .

ان الانسان يعيش مضطربا بين عالمين .. عالم ارادته الحرة بداخله .. وعالم المادة حوله الراسف المغلول فى القوانين .

وسبيله الوحيد الى فعل حر هو معرفة هذه القوانين والفطنة الى استغلالها بالوفاق معها .. وهو دائما أمر ممكن .

ولهذا فالحرية حقيقة لا تنفيها المقاومات والظروف الخارجية بـل ان هـذه المقاومات تؤكد الحرية فلا يمكن أن نكشـــف حريتنـــا عن مدلولها فى الخارج الا بوجود عقبات تزحزحها وتتغلب عليها .. انها تكشف عن مدلولها من خلال صراع .. وبدون هذا الصراع لا يقوم لها معنى .

والضوابط الخلقية والقوانين الاجتماعية لا تنفى الحرية وانما هى أشبه بعلامات المرور .. وضعت لتنظم المرور وتفســـح أكبر حرية للكل .

وأنت حينما تقيم الضوابط على شهوتك تكســـب حريتك لأنك تصبح سيد نفسك لا عبدا لغريزتك .

أما حرية القمار والســـكر والعربدة والمخدرات والتبـــذل الجنسى فهى ليست حريات وانما درجات من الانتحار واهـدار الحياة وبالتالى اهدار الحرية .

وكل اختيار ضد الحياة لا يكون اختيارا ·

وكل اختيار ضد القانون الطبيعي ليس اختيارا وانما اهدار للاختيار وكلنا نعلم اننا اذا أردنا أن نزداد حرية ونحن نسبح اخترنا السباحة مع التيار وليس ضده ·

نخلص من هذا الى أن حرية الانسان حقيقة برغم ما يقوم حولها من حدود ومقاومات ·· وان الانسان حر حرية مطلقة في منطقة ضميره فهو يستطيع أن يضمر ما يشاء ·· وحر حرية نسبية في التنفيذ ، في منطقة الفعل والعمل ·· بحسب ما يقوم حوله من حدود ومقاومات ·

ويبقى بعد ذلك اللغز الازلي في علاقة الانسان بالله · وعلاقة حرية الانسان بالارادة الالهية المطلقة ·

وهنا يجيء دور القرآن ليلقي كلمات كالومض الخاطف يعطي بها مفاتيح هذا الاشكال الأزلي ·

ولأن القرآن كتاب دين وليس كتاب فلسفة فانه يكتفي بالومض والرمز والاشارة واللمحة ·

فيقرر أولا أن حرية الانسان كانت بمشيئة الله ورغبته ومراده ·· وان مايجري من حرية الانسان لايجري اكراها للخالق ولا اكراها للمخلوق ، وانما بهذا قضت المشيئة ·

ويقول القرآن في وضوح :

« ولو شاء ربك لآمن من في الارض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين »

(يونس ـ ٩٩)

لقد رفض الله أن يكره الناس على الايمان وكان هذا في امكانه ولكنه أراد للانسان أن يكون حرا مختارا ، يختار الايمان أو الكفر كما يشاء :

« وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر »

(الكهف - ٢٩)

« لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغى »

(البقرة - ٢٥٦)

« ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها »

(السجدة - ١٣)

« وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى »

(فصلت - ١٧)

ان الله يتركنا ولو اخترنا العمى على الهدى .. وقد سبقت بهذا مشيئته .

بل فعل بنا أكثر من هذا ، فخيرنا حتى فى أن نختار .. عرض علينا هذه الامانة (وهى الحرية والمسئولية) عرضها لنقبلها أو نرفضها كما نشاء وهى الامانة التى رفضتها الجبال فحمل الانسان الامانة التى رفضتها الجبال . وكان بنفسه جهولا ظلوما :

« انا عرضنا الامانة على السماوات والارض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا »

(الاحزاب - ٧٢)

لقد جهل الانسان تبعة هذه الامانة وأهوالها ومهالك الغرور التى سوف يتعرض لها بحملها .. وكيف أنه سيظلم بها نفسه وغيره .. ولكن الله كان يعلم بهذه المحنة الهائلة .. وكان يعلم أن هذه المحنة سوف تزكى الانسان وتطهره وتربيه :

« **واذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الارض خليفة ، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ، قال اني أعلم مالا تعلمون** »

(البقرة - ٣٠)

ولا نعرف كيف تم هذا العرض على الانسان بأن يكون حرا أو لايكون ، ولا متى تم هذا العرض ٠٠ هل حدث في مبدأ الخلق مع آدم ٠٠ أم مع الارواح قبل نزولها الى الارحام ٠ فهذا غيب مطلق ٠

والقرآن يكتفي بأن يعطى ومضة ، ولمحة ٠

وبهذه الحرية التي قبلها الانسان مختارا حقت عليه المسئولية والمحاسبة وأشار القرآن لهذا في آيات حاسمة قاطعة :

« **كل نفس بما كسبت رهينة** »

(المدثر - ٣٨)

« **كل امرىء بما كسب رهين** »

(الطور - ٢١)

« **وكل انسان ألزمناه طائره في عنقه** »

(الاسراء - ١٣)

« **قل لا تسألون عما أجرمنا ولا نسأل عما تعملون** »

(سبا - ٢٥)

« **ولا تزر وازرة وزر أخرى** »

(الاسراء - ١٥)

لا يستطيع أحد أن يفتدى آخر أو يحمل عنه ذنبه وانما لكل عمله وعلى كل وزره ٠

وبمقتضى هذه الحرية جعل الله من « ضمير الانسان ونيته وسريرته » منطقة محرمة وقدس أقداس ·· لا يدخلها قهر أو جبر ·· وقطع على نفسه عهدا بأن تكون هذه المنطقة حراما لا يدخلها جنده ·

فالمبادرة بالنية حرة تماما ·

وكل منا له أن يضمر وينوى ويسر فى سريرته ما يشاء وانما يبدأ التدخل الالهى لحظة خروج النية الى حيز الفعل ·· فيعطى الله لكل انسان تيسيرات من جنس نيته ومن جنس ضميره وقلبه ·· وهو عين العدل ·· ليكون الفعل بعد هذا معبرا عن دخيلة فاعله :

« فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى »

(الليل من ٥ الى ١٠)

ها هنا وعد آخر من الله بأن يجعل تيسيرات الافعال مطابقة لدخائل القلوب فيجد الشرير تيسيرات الشر ، ويجد الخير تيسيرات الخير ·· ومن يعلم الله فيه الهدى يهديه ، ومن يعلم فيه الضلال يتركه للشياطين تضله ·

« فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا »

(الفتح ـ ١٨)

وفى آيات أخرى تراه يقول :

« ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم »

(الأنفال ـ ٢٣)

« فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم »

(الصف ـ ٥)

ولأن الله علم بكل شيء مسبقا ·· وأحاط بكل شيء علما ·· نراه يتكلم فى القرآن عن من :

« حق عليهم القول »

(فصلت ـ ٢٥)

و « الذين سبقت لهم منا الحسنى »

(الأنبياء ـ ١٠١)

و « من حقت عليه الضلالة »

(النحل ـ ٣٦)

« حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين »

(السجدة ـ ١٣)

فقد علم مسبقا وسلفا بأن الانسان سيفسد فى الارض وسيسفك الدم ويظلم نفسه ويظلم الآخرين ·· ويستحق بذلك درجات متفاوتة من العقوبة ·

كل هذا كان فى سابق علمه ·

وليس هذا بالجبر ولا بالحتم ·· ولكن ·· كما يحدث أن تتوسم فى أحد أبنائك حب العلم والتحصيل فتمده بالتسهيلات والتيسيرات وتبعثه الى الخارج فى بعثة ·· وترى في الآخر العكوف على الفساد وصحبة السوء فتكتفى بما له من حظ محدود من التعليم فى بلده ·· ولو فعلت عكس ذلك لكنت ظالما ·· ولأكرهت أبناءك على غير طبائعهم ·

كما أن هذا التوسم المسبق ليس فيه عنصر اكراه

ولا جبر ‥ انما هو مجرد سبق علم ‥ فأنت تعلم مسبقا من أخلاق ولدك بأنه سوف ينصرف الى اللعب ويهمل كتبه‥ فاذا انصرف الى اللعب بالفعل وأهمل كتبه فان ذلك لا يكون اكراها منك ولا جبرا ولا عنوة وانما لأن هـــذه طبيعته التى سبق علمك اليها ‥ وانما تأتي التجربة فتكشف له نفسه‥ وبذلك يحق عليه العقاب صدقا وعدلا ‥ فقد علم من نفســه ما لم يكن يعلم ·

« علمت نفس ما قدمت وأخرت »

(الانفطار – ٥)

ولهذا جاءت الدنيا لتكون حقل تجربة واختبارا لمعـــادن النفوس ·

« خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا »

(الملك – ٢)

وحتى لا تكون لأحد أعذار فى أفعاله فيقول لحظة الحساب فعلت كذا وكذا تحت تأثير العرف والتقاليد والبيئة والمجتمع والتربية ‥ الخ ‥ الخ ‥ حسم الله الموضوع فقـــال فى القرآن :

« لايؤاخـذكم الله باللغـو فى أيمـانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم »

(البقـرة – ٢٢٥)

وفى آية ثانية :

« وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمـدت قلوبكم »

(الأحـزاب – ٥)

وفى آية ثالثة يحدثنا عن الذين ارتدوا الى الكفر بعد ايمانهم ويهددهم بأشد العذاب ثم يستثنى قائلا :

« الا من أكره وقلبه مطمئن بالايمان »

(النحل - ١٠٦)

أى من كفر بلسانه تحت تأثير التعذيب وظل قلبه مؤمنا .
ان ما يدور فى القلب هو موضوع المحاسبة بالدرجة الاولى وليس ما يجرى على مسرح الفعل .

« يوم تبلى السرائر »

(الطارق - ٩)

ان السريرة هى محل الابتلاء ومحل المحاسبة .
والسريرة هى السر المتجاوز للظروف والمجتمع والبيئة والتربية كما أسلفنا فى شرحنا المسهب .. فهى المبادرة المطلقة .. والابتداء المطلق الذى أعتقه الله من كل القيود .
انها روحك ذاتها وهى الكاشفة عن حقيقتك بمثل ما تكشف بصمة اصبعك عن فرديتك .
وروحك فيها من حرية الله لأنها نفحة منه :

« فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين »

(الحجر - ٢٩)

ولأن فيك ذلك القبس من الله ولأنه كرمك بحرية الارادة فأنت محاسب على هذه الحرية ، وهذا منتهى العطاء الالهى ومنتهى العدل أيضا .
ومن هنا يأتى المزج بين الروح وبين الله فى آيات عميقة الدلالة :

« وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى »

(الانفال - ١٧)

يأتيك النصر بيدك وبيد الله فى ذات الوقت فتكون يدك لحظة الانتصار هى يد الله ورميتك رميته ومشيئتك مشيئته ٠

ومن هنا قد يعترض معترض ٠٠ فيقول :

فلماذا لا تكون النية هى الاخرى مقدرة ؟

والجواب على ذلك يأتى من صميم القرآن :

« فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا »

(البقرة - ١٠)

« كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب »

(غافر - ٣٤)

« والذين اهتدوا زادهم هدى »

(محمد - ١٧)

« فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم »

(الصف - ٥)

« سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الارض بغير الحق »

(الأعراف - ١٤٦)

ومن هذا يتبين أن الله يترك المبادرة بالنية دائما لك ثم بعد ذلك يأتى قضاؤه فيزيدك مرضا اذا أضمرت المرض فىقلبك ويهديك اذا بادرت فى سريرتك بميل الى هدى ٠٠ ويصرفك عن الهدى اذا أضمرت الكبر ٠

ان منطقة الضمير متروكة دائما لك لتبادر بما تشاء ٠٠ وبعد ذلك ينزل عليك القضاء ويحق عليك القول ٠

والله لايمكن أن يفرض عليك نية بالسوء أو بالظلم ٠

« ان الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لاتعلمون »

(الاعراف - ٢٨)

وهذا يدل على أن قانون الخلق الاول هو أن تكون الروح محرابا وقدس أقداس لا يدخلها قهر ·· ولا يكرهها الله على شيء لا هو ولا جنده ولا أنبياؤه ولا أولياؤه ·

انهـــا « السر الاعظم » الذى لا يعلم به الا الله يوم تبلى السرائر ·

وفى هذا يقول حديث نبوى شريف عن أبى بكر :

« لا يفضلكم أبو بكر بصلاة ولا بصيام ولكن بسر وقـــر فى قلبه » ·

ويقول الله فى قرآنه :

« ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد ايمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم »

(البقرة – ١٠٩)

لم يخلق الله الحسد فى قلوبهم ولم يودعه ضمائرهم ، ولكنهم يحسدونكم اختيارا من عند أنفسهم ·· والعبارة هنا صريحة (من عند أنفسهم) ·· وهى تنفى التدخل الالهى وتقطع بوجود هذه المنطقة الداخلية التى تركها الله حرة ·

ويقول الله تعالى مخاطبا الشيطان :

« ان عبادى ليس لك عليهم سـلطان الا من اتبعك من الغاوين »

(الحجر – ٤٢)

ان الشيطان لايستطيع ان يدخل قلبك الا اذا فتحت لـه الباب اختيارا وكنت من الغاوين ، ولكنه لايســـتطيع أن يقتحم عليك قلبك جبرا وقسرا ·

ان الله قد كفل لهذا القلب الحماية ولم يجعل لأحد من جند الشر أو الخير سلطانا قاهرا عليه الا اذا أراد صاحب هـــذا

القلب اختيارا أن يستضيف ويدعو ويحتضن دواعي الشر أودواعي الخير فحينئذ يكون له ما أراد .

نحن أمام قدس أقداس بالفعل .. وحرم محرم تقوم عليه الاسوار ولا يدخله حتم ولا جبر ولا اكراه .

وما يحدث لنا من اكراه بالفعل فى عالم الواقع لايمكن أن يصل الى داخل ضمائرنا .

يمكنك أن تجبرنى بالقوة على أن أرفع يدى أو أقف مرغما أو أهتف باسمك ، ولكن لا يمكن أبدا أن تجبرنى على أن أحبك .

ولهذا لا تعطينا الاديان رخصة لنقول يوم الحساب أن فلانا أغرانى أو فلانا أجبرنى ، أو فلانا اكرهنى املا فى ان يلقى الواحد ذنبه على الآخر فقد جعل الله من أعماق الضمير والسريرة منطقة حراما لا يستطيع أن يدخلها جبار بجبروته .

يمكن أن تكره خادمك على فعل . ولكنك لا تستطيع أن تكرهه على أن يضمر شيئا فى سريرة قلبه .

والقرآن يعتبرك حرا مسئولا مهما أحاطت بك ظروف الاستبداد فيقول اشارة الى أمثال هذه الظروف :

« ألم تكن ارض الله واسعة فتهاجروا فيها »

(النساء ـ ٩٧)

لا أعذار .

حينما تقضى اللحظة أن تختار فأنت تختار نفسك بالفعل .

« انا هديناه السبيل اما شاكرا واما كفورا »

(الانسان ـ ٣)

وفى لفظ « اما » يبدو عنصر الاختيار واضحا محددا .

« ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها »

أى فتح أمامها سبيل الخير والشر وتركهــا أمام الطريقين لتختار .. ولهذا قال فجورها وتقواها ، ولم يقل أو تقواها لأنه فتح الطريقين معا ليجعل للنفس الاختيار ولم يجبرها على أحد الطريقين .. ولذلك أردف موضــحا : « **قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها** » ، فرد الفلاح والخيبــة للنفس المخيرة ، وفى آية أخرى يوضح الامر أكثر فيقول

« وهديناه النجدين »

(البلد ـ ١٠)

أى هديناه الى مفترق طريقين يختار أيهما .

ان النية حرة .

والسريرة حرة فى اضمارها لما تشاء .

أما الفعل فهو حر ومقدور فى ذات الوقت .

وكل واحد منا له نصيبه من حرية الفعل .. والذى يقول بالجبرية سوف يقع فى مأزق حينما نسأله كيف يميز بين يده يحركها فى حرية ويكتب بها ما يشاء .. وبين يده وهى أسيرة ترتعش قهرا فى رجفة الحمى .. هنا أمامنا حالتان واضحتان ، حرية فى حالة الصحة ، وجبرية فى حالة المرض ، ولو كانت الجبرية التى يقول بها صحيحة لمــا أمكن أن يميــز بداهة بين الحالين .. ولما أمكن أن تقوم الحالتان أصلا .

ان حرية الفعل اذن حقيقة .. والقدر أيضا حقيقة .

والمشكلة هى أن نحاول أن نفهم هذا الازدواج وكيف لايلغى الواحد منه الآخر .. كيف لايلغى القــدر الحرية .. وكيف لا تلغى الحرية القدر .

وهذا أمر نستشفه من الآيات استشفافا .. فهى تلمح ولا تصرح ، حتى لاتلقى بالناس فى بلبلة .

يقول الله فى كتابه :

« ان نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لهـا خاضعين »

(الشعراء – ٤)

لو شاء لفعل ولكنه لم يفعل .. لأنه لم يشأ أن يقهرنا عـلى ايمـان فتنتفى بذلك حرية الاختيار التى جعـل منها جوهر وجودنا .. فقد أراد لنا أن نكون أحرارا نؤمن أو نكفر .

ولم يجعل الله ابليس ابليسا .

وانما ابليس اختار لنفسـه الكبرياء والجبروت والتعاظم حينما رفض أن يكون فى خدمة آدم مثل بقية الملائكة وقال :

« أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين »

(ص – ٧٦)

اختار ابليس لنفسه الغرور بغير علم ولا حق . فاختاره الله ليغرر بالناس وقضى عليه قضاء من جنس ضميره .

وبالمثل أبصر النقاء والطهر فى قلب محمد فاختاره نبيـا للهداية :

« والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا »

(العنكبوت – ٦٩)

ولهذا السبب أيضا . لعدم القهر والجبر . أخفى الله نفسه فى الانجيل وأخفى نفسه فى القرآن لأنـه لم يرد أن يلجمنا بالتجلى القاطع الفاصل فيقهرنا على الايمان قهـرا . فجعل من التوراة والانجيل والقرآن كتبا يمكن أن نؤمن بها ويمكن أن نشك فيها . وقال عن قرآنه :

« يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا »

(البقرة – ٢٦)

وضمن آياته البراهين ولكنه لم يجعلها أبدا براهين ملزمة

تأخذ بالخناق وتقهر العقل ٠٠ وانما تركك دائما لترجح شيئا على شيء حرصا منه على حريتك ٠٠ ولتقــول ما تريد بدون مؤثرات كابحة ٠٠ فتفصح عن دخيلتك وسريرتك ويحق عليك القول ٠

لقد أرادك أن تكون من أحد الاوجه خليفة صغيرا له عــلى الارض تحكم وتقضى فى شئونك وشئون الآخرين ٠٠ ليمتحنك ويختبرك ٠

وفي آية نموذجية يشرح القرآن ما بين القدر الالهى والحرية الفردية من تلاق ويرفع ما بينهما من تناقض ٠٠ حينما يروى ما حدث من تكاسل المنافقين عن نصرة الرسول وعدم الخروج معه فى غزواته :

« ولو أرادوا الخــروج لأعـدوا له عـدة ولـكن كره الله انبعــاثهم فثبطهم وقيــل اقعــدوا مع القـاعدين لو خرجوا فيكم مازادوكم الا خبـالا ولأوضــعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين»

(التوبة ـ ٤٦ ـ ٤٧)

ها هنا منافقون بالقلب لا يريدون بالنية أن ينصروا نبيهم فيقضى عليهم الله بمثل نيتهم فلا يريد لهم كمــا لم يريدوا لأنفسهم ويثبطهم ويكره لهم الخروج كما كرهوه لأنفسهم ٠

ها هنا يبدو كيف تماثل أمر الله واختيار الانسان وانتفى التناقض ٠٠ فلم يكن التناقض الا فى وهمنا نتيجة عدم الفهم ٠

وأصبح من السهل علينا أن نفهم آيتين متناقضــتين فى الظاهر مثل :

« فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر »

(الكهف ـ ٢٩)

« وما تشاءون الا أن يشاء الله »

(الانسان ـ ٣٠)

ففى الآية الاولى يصف الله ارادة الانسان الحرة ٠

وفى الآية الثانية يتكلم عن ارادته الالهية وهى القدر ٠

وما بين الاثنين من تناقض هو تناقض فى الظاهر فقط ٠٠

فقد فهمنا أن الله يريد للانسان ما يريد الانسان لنفسه :

« ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم »

(الرعد - ١١)

وهو يقدم للانسان من التيسيرات مايماثل ضميره وقلبه ٠ وبالتقاء الاثنين ٠٠ الحرية والقدر ٠٠ ينفذ القضاء ويتم الفعل بارادة الله ومشيئته وفى نفس الوقت باختيار الانسان وحريته بلا تناقض « **قل كل من عند الله** »

فانت تشاء ولكن قدرتك على أن تشاء وتختار هى منحة من الله ومشيئة عليا ٠٠ حريتك ذاتها منحة وعطيـة ومشـيئة الهية ٠٠ ومن هنا كانت الآية ٠٠ وما تشاؤون الا أن يشـاء الله ٠٠ هى تقرير للحقيقة ٠٠ وليست كلاما متناقضا ٠٠ فهى تقرر أنك حر ولكن حريتك منحة وعطية وهبة ومشـيئة من المعطى ٠

ثم تاتى الآية القرآنية الحاسمة فتختم الموضوع :

« واعلموا أن الله يحـول بين المرء وقلبـه وآنه اليـه تحشرون »

(الأنفال - ٢٤)

ومعنى هذا أن الله يدع القلب حرا فتكون لكل انسان سريرة هو حر فيها ٠ ولكنه يقيم سلطانه بين المرء وقلبه ٠

فهو يحول بين المرء وقلبه بالتمكين والاحباط لطفا ورحمة

ليقى أحباءه السيئات .. وليقدم التيسيرات لكل حسب ضميره ونيته ومبادراته .. اما لليسرى واما للعسرى .

ثم تكون الرجعة فى النهاية اليه يوم القيامة فيحاسب كل انسان على وفق سريرته .. فقد كان كل منا حرا فى سريرته وهو عنها مسئول .

بهذه الكلمات التى تضىء كالومض الخفى يعطى القرآن المفتاح لأكبر المشكلات استعصاء فى الفلسفة .. مشكلة الجبر والاختيار .

قصة الخلق

مبدأ الخليقة وكيف كان ٠٠ وميلاد الارض والقمر والشمس والنجوم ، وكيف حدث ٠٠ وكيف خطا على الارض أول انسان ومن أين جاء ؟

كل هذه أمور خاضت فيها العلوم وكانت لهـــا فى شأنها نظريات وشواهد وبراهين ٠

علوم البيولوجي والانثروبولوجى والفلك والكيمياء العضوية والجيولوجيا والتطور الذى أصبح الآن علما قائمـا بذاته ٠٠ وعلم الاجنة ٠٠ وعلم التشريح ٠٠ مجلدات ومجلـــدات ٠٠ وكلام كثير لا يمكن أن نكون بمعزل عنه ونحن نقرأ ما يقوله القرآن عن قصة الخلق ٠٠ فما قام الدين أبدا منعزلا عنالحياة ولا قام ليعادى العلم بل انه قام ليقـــدم لنا منتهى العلم ٠٠ وليقودنا الى اليقين فى مقابل الشك والاحتمال والترجيح ٠٠ جاء ليقول كلمة أخيرة ٠٠ فلا يمكن أن نخـوض فيه دون أن نخوض فى كل شيء ٠٠ ودون أن نثير القضية كاملة برمتهـا علما ودينا وفلسفة وسياسة ٠

وهذا يردنى الى كتابين كتبتهما وقدمت فيهما الاشـكال جملة وتفصيلا هما ٠٠ لغز الموت ٠٠ ولغز الحياة ، ولايمكن

أن أعود فأكرر ما قلته فيهما .. ولذا سأكتفي بسطور أعود فأثيرها حتى لا يضيع منا السياق وحتى أربط معى القارىء فى الفكرة الكلية .

أعود الى الحياة .. والى مبدئها . والتقط دارون . أبا التطور ليروى لنا رؤيته عن مسيرة الحيـاة ، وهى الرؤية التى غيرت فكر الدنيا .

●●●

فى رحلة حول العالم فى الباخرة « بيجـل » مضى دارون يجمع العينات من البر والبحر ومن تحت الماء ومن فوق المـاء ويدرس ويتأمل ويدون ويجمع ملاحظاته عن الاحياء فى كافة أرجاء الارض .

ولاحظ داروين عدة ملاحظات :

ـ ان الحياة تتلون وتتكيف وتغير من تكوينهـا لتتلاءم مع بيئتها على الدوام .

ـ الانسان فى المناطق القطبية ، سمين مكتنز بالدهن تماما مثل الحوت ليقى نفسه غائلة البرد .. والدببة مغطاة بالمثل بمعاطف من الفراء . بينما هو فى المناطق الاستوائية الحارة نحيل هزيل أسـود ، وكأنمـا اخترع لجلـده مظـلة لتقيـه الشمس .

ـ سحالى الكهوف التى تعيش فى الظلام لا وظيفة عنـدها للبصر ، ولا للألوان .. ولهذا فهى عمياء وبلا لون .. بينمـا سحالى البرارى حادة البصر وملونة .

ـ أفواه الحيوانات اختلفت وتباينت حسب وظائفها : فم مزود بأسنان خنجرية تقطع وتمزق مثل النمـر ، وفم مزود بمنقار يلتقط مثل الطير وفم مزود بخطاف يتشبث كمـا فى دودة الانكلستوما التى تمسك بجدار الامعـاء .. وفم مزود بخرطوم يمص كما فى الذبابة .. وفم مزود بابرة تحقن كما

فى البعوضة ٠٠ وفم مزود بمناشير وطواحين تطحن وتقرض كما فى الحشرات القارضة ٠

هل الحكاية أن الحيوانات أصلها واحد ٠٠ ثم تطور هذا الاصل وتباين واختلف الى هذه الفصائل المتباينة بسبب تباين الظروف والبيئات ٠٠ الحيوانات التى دبت على الارض طورت لنفسها أرجلا ٠٠ والتى نزلت الى البحر تحورت فيها الارجل الى زعانف ، والتى طارت فى الجو تحورت فيها الاطراف الى أجنحة ٠

اذا كان هذا الاستنتاج صحيحا ، فلابد أن يكشف لنا التشريح تشابها فى بنية الجميع ٠

وهذا هو ما قاله المشرط بالفعل ٠

ففي الثعبان الذي بلا أرجل يكشف التشريح عن أرجل ضامرة مختفية فى هيكله العظمى ٠

والطيور التي تبدو وكان لها زوجا واحدا من الاطراف يكشف التشريح أن أجنحتها هى الزوج الثانى من الاطراف تحور ليلائم وظيفته الجديدة ٠

الاسماك التي تدب على الارض وتتنفس برئات يكشف التشريح عن أن رئاتها هى نفس كيس العوم تحور ليلائم وظيفة التنفس الجديدة ٠

زعانف السمك الاربع هى نفس الاطراف الاربعة متحورة الى ما يشبه المجاديف ٠

عدد أصابع اليد والقدم فينا خمس وفى القرود خمس وفى الفيران خمس وفى السحالى خمس ، حتى الوطاويط لهاخمس أصابع ضامرة ٠

القلب والدورة الدموية تسير على خطة واحدة فى الحوت كما فى الفأر ، كما فى القرد كمافى الانسان كما فى الوطواط ٠ نفس الشرايين لها نظائرها فى كل نوع ، والقلب هو دائما نفس القلب بغرفه الاربع ٠

والجهاز العصبى الذى يتألف من مخ وحبل شوكى وأعصاب حس ، وأعصاب حركة ، هو نفس الجهاز العصبى فى الكل .

والجهاز العضلى بعضلاته والهيكل العظمى بعظامه عظمة عظمة .. كل عظمة لها نظيرها مع اختلافات طفيفة فى الشكل لتلائم الوظيفة فى كل حيوان .

والجهاز التناسلى نفس الخصية والمبيض وقنوات الخصية والمبيض والرحم فى كل حيوان .

وفترة الحمل عندنا تسعة أشهر ، وفى القرود العليا تسعة أشهر وفى الحيتان تسعة أشهر .. حتى فترة الرضاعة فى الجميع سنتان .

ثم خبطة أخرى : يكشف التشريح فى الهيكل العظمى للانسان بنفس فقرات الذيل التى فى القرود ، وقد تدامجت والتحمت لانعدام وظائفها .. حتى عضلات الذيل قد تحورت الى قاع متين للحوض .

وفقرات الرقبة فى الانسان عددها سبع وفى الزرافة برغم طول رقبتها أيضا سبع وفى القنفذ سبع .

وخبطة ثالثة : يمر الجنين فى رحم أمه وهو يتخلق على مراحل فى مرحلة يكون أشبه بسمكه وتكون له خياشيم .. وفى مرحلة أخرى ينمو له ذيل ثم يضمر .. وفى مرحلة ثالثة يتغطى بالشعر تماما كالقرد ثم يبدأ الشعر ينحسر عن جسمه تاركا مساحة صغيرة عند الرأس .

لقد فضح الجنين القصة .. وكشف لنا أصلنا الذى انحدرنا منه .

والمشرط وهو يعبث خلف الاذن البشرية اكتشف شيئا آخر . فهاهى ذى نفس عضلات الاذن التى كانت تحرك آذان أجدادنا الحمير وقد تليفت وضمرت حينما لم تعد لها وظيفة .. وحينما اتخذت آذاننا أشكالا تغنيها عن الحركة .

ثم هاهى دى الحفريات تكشف عن حماجم بشرية ذات شكل قردى فى الترنسفال وبكين وجاوة ونياندرتال وبعض هـذه الجماجم وجدت فى كهوف عثر بها على بقايا خشب متفحم فى مواقد تدل على أن أصحاب هذه الجماجم قد اكتشـفوا النار واستخدموها منذ ملايين السنين ٠

لم يبق الا أن يكتب دارون نظريته فى أصل الانواع ٠

بل ان النظرية لتكتب نفسها فتقول ان الانواع انحدرت كلها من أصل واحد تباين واختلف الى شجرة من الفصـائل والانواع نتيجة تباين الظروف والبيئات ٠

وابتكر دارون لنفسه تفسيرا ٠٠ فقال ان الترقي حـدث بحوافز داخلية وبدون يد هادية من خارج ٠

مجرد صراع البقاء كان الغربال ٠

كان التـزاوج يلقى بتصـانيف وتواليف ٠ التـواليف التى خرجت الى الحيـاة بأرجل مبططة كانت أصلح للعوم واستطاعت أن تستمر فى الحياة المائية والحيـوانات المائية الاخرى التى حافظت على التصنيف القديم للارجل البرية ماتت٠
وهكذا عاش الأصلح ومات الاقل صلاحية ٠٠ وحدث الترقى الذى نراه تلقائيا بمجرد الحوافز الحياتية المادية ٠

وقامت الزوبعة على دارون ٠

ومضت سنين وسنين من التمحيص واعادة النظر ٠٠ وعاش من نظرية دارون بعضها ومات بعضها ٠

حكاية أن الانواع انحدرت من اصل واحد وانها تباينت الى شجرة من الفصائل والانواع نتيجة تباين الظروف والبيئـات كانت احتمالا مرجحا أقرب الى الصحة تقوم عليه الشواهد ٠

فالوشيجة العائلية تربط كل الخلائق بالفعـل ٠٠ والتشريح يقول أنهاترتبط ببعضها البعض بصلة رحم وقربى ٠

أما حكاية ان الترقي حدث بالحوافز الحياتية وحدها وبدون يد هادية فلم تعد مقنعة ·· وسقطت من غربال الفكر المدقق المحقق ·

فلماذا يخرج من عائلة الحمار شيء كالحصان مع أن الحمار أكثر جلدا واحتمالا ·· وبأي حوافز يتطــور من عائلة الوعل شيء كالغزال وهو أرهف وأضعف وأقل جلدا من الوعل ·· وبالمثل الفراش الملون الرقيق أبطأ وأضعف وأقل قدرة من الزنبور الطنان الغليظ الشكل ·· والحمام واليمام والطـــواويس والعصافير الملونة أكثر رهافة وتهافتا من الصقور والحـدادى والنسور ·

ونشوء هذه الانواع لا يمكن ان يفسره قانون بقاء الاصلح وانما قانون آخر هو بقاء الاجمل ·

أجمل في عين من ؟

يقول المعلق الخبيث ·· أجمل في عين بعضها البعض ·· الذكر فيها يختار الانثى الاجمل ·· انه انتقاء جنسي · اننا مازلنا أمام الحوافز الحياتية المادية ·

وهو قول مردود عليه ·

فلماذا يختار الذكر الانثى الأجمل ؟ ان القضية مازالت تطرح نفسها ·· ان الجناح المنقوش ليس أصلح للطيران من الجناح السادة ·· لاتوجد مصلحة حياتية هنا ·· وانما هنـا قيمة جمالية عليا تفرض نفسها على جميع الحوافز ·· هنا عقل الخالق المبـدع الذى يجمل مخلوقاته ·· نلمس آثاره في ورق الشجر وألوان الزهر وأجنحة الفراش وريش الطواويس ·

كما نقف مذهولين أمام بعض الاشجار الصحراوية اذ نجد أن الطبيعة خصتهـا ببذور مجنحة لتطير محلقة تقطع أميـــال الصحارى الجرد لتجد فرصها القليلة في الماء ·· أو نتأمل بيض البعوض فنكتشف أنه يملك أكياسا هوائيه للطفو ، ليعـوم في الماء ولا يغرق · كل هذا لا يفسره الا عقل كلي يفكر ويهندس

لمخلوقاته فلا أشجار الصحارى تعقل لتزود بذورها باجنحة ولا البعوض يعرف قوانين أرشميدس فى الطفو ليزود بيضه بوسيلة للعوم ٠

هذه أمور تعجز أمامها نظرية داروين تماما ولا يفسرها الا عقل كلى شامل يهندس الوجود ويصممه تصميما وينشئه انشاء ٠

ولنشرح هذا الكلام أكثر سوف نتصور حكاية خيالية افتراضية ·· سوف نتصور أننا نعانى نقصا خاصا فى حاسة البصر ·· وهو نقص يجعلنا نرى الآلات المختلفة دون أن نرى صانعها ·· وهكذا سوف نرى عربة اليد والعربة الكارو والعربة الحنطور والسيارة والقطار والديزل دون أن نرى الانسان ·· وسوف نقول أن هذه أشياء تطورت من بعضها البعض على سلسلة من المراحل ، وسوف ندلل على ذلك بما بينها من تشابه تشريحى ٠ فكل هذه الكائنات تتشابه فى أنها من مادة الحديد والخشب والجلد وتتركب من جسم وعجلات ٠ وبين السيارة والديزل والقطار سوف نرى أن هناك موتورا يتألف من سلندر وبستم ، مرة يشتغل بالبنزين ومرة بالبخار ومرة بزيت الديزل ٠

ولأننا لانرى الصانع الذى صنعها جميعا فسنقول أنها تطورت بعوامل داخلية فيها ·· نتيجة صراعها مع البيئة وبقاء الاصلح بعد معارك البقاء الطويلة ٠

وسوف ننكر العامل الخارجى لاننا لا نراه ٠

فنحن نرى أنها تتحرك بمحرك داخل فيها ٠

وهذا هو الخطأ الذى وقع فيه داروين فى نظريته عن النشوء والارتقاء حينما قال ان عوامل التطور هى عوامل داخلية وان الحياة تتقدم بحوافز باطنة دون يد هادية ترشدها ·· تتقدم بفضل الآليات المادية داخلها ·· لمجرد أنه لايرى يد الصانع الخالق المصور وهى تهندس وتخلق ٠

نحن اذن أمام نظرية اكتشفت الوشائج العائلية بين أسرة الاحياء من نبات وحيوان وانسان ولكنها لم تستطع أن تفسر لنا كيف حدث الترقي بينها ٠

فاذا انتقلنا الى كلام العلم عن مبدأ الحياة ٠٠ فنحن أمـــام اجماع بأن الحياة بدأت من الماء ٠٠ من ماء المســتنقعات الذى تختمر فيه المادة وتتحلل وتتركب بقوة غير معروفة الى الشكل الاول للحياة ٠٠ البروتوبلازم ٠٠ لا أحد يعرف كيف نشأ من الماء والتراب ٠

فاذا جئنا الى مبدأ الكون كله ٠٠ بنجومه وشموسه وكواكبه فنحن أمام اجماع من علماء الفلك بأن كل شيء نشأ من الهواء من سحب الغاز والتراب الاولية ٠

تكاثفت هذه السحب من الغاز والتراب بفعل الجاذبية بين ذراتها الى أنوية فى الوسط هى الشموس والى تكثفات أصغر حولها هى الكواكب ٠

هذا مبلغنا من العلم فى قضية الخلق فى عرض سريع موجز ٠

فماذا قال القرآن حينما تعرض لهذه القضية منذ ١٤ قرنا من الزمان ٠ وماذا جاء عـلى لســان ذلك النبى الأمى الذى لـــم يكن يعــرف لا هـــو ولا قومـــه ولا عصره معنى كلمة بيولوجيا وجيولوجيا وكيمياء عضوية وعلم أجنة وتشريح وانثروبولوجيا ٠

● ● ●

القرآن له أسلوبه المختلف عن كل الاساليب ٠٠ وهـــو حينما يشير الى مسألة علمية لا يعرضها كما يعرضها اينشتين بالمعادلات ، ولا كما يعرضها عالم بيولوجى برواية التفاصـــيل التشريحية ٠٠ وانما يقدمها بالاشارة والرمز والمجاز والاستعارة واللمحة الخاطفة والعبارة التى تومض فى العقل كبرق خاطف انه يلقى بكلمة قد يفوت فهمها وتفسيرها على معاصريها ٠٠ لكنه يعلم أن التاريخ والمســـتقبل سوف يشرح هذه الكلمة ويثبتها تفصيلا ٠

« سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم انه الحق »

(فصلت – ٥٣)

والله يقول عن كلامه :

« وما يعلم تأويله الا الله »

(آل عمران – ٧)

ويقول عن القرآن :

« ثم ان علينا بيانه »

(القيامة – ١٩)

اى أنه سوف يشرحه ويبينه فى مستقبل الأعصر والدهور ٠ فماذا قال القرآن عن قصة الخلق ؟
انه يقول عن الله فى البدء الاول :

« ثم استوى الى السماء وهى دخان »

(فصلت - ١١)

فى البدء كان شىء كالدخان جاء منه الكون بنجومه وشموسه ٠

« يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل »

(الزمر – ٥)

وهى آية لايمكن تفسيرها الا أن نتصور أن الارض كروية والليل والنهار كنصفى الكرة ينزلق الواحد منهما على الآخر بفعل دوران هذه الكرة المستمر ٠٠ بل ان استعمال لفظ « **يكور** » هو استعمال غريب تماما ٠٠ ويفرض علينا هذا التفسير فرضا ٠

« والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم »

(يس - ٣٩)

والعرجون هو فرع النخل القديم اليابس لا خضرة فيه ولا ماء ولا حياة وهو تشبيه حرفي للقمر الذى لا خضرة فيه ولا ماء ولا حياة ·

« لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون »

(يس - ٤٠)

بل انه يصف الفضاء بأن فيه طرقا ومجارى ومسارات ·

« والسماء ذات الحبك » · والحبك هى المسارات ·

(الذاريات - ٧)

ويقدم فكرة الحركة الخفية من وراء السكون الظاهر :

« وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب »

(النمل - ٨٨)

وتشبيه الجبل بسحابة هو تشبيه يقترح على الذهن تكوينا ذريا فضفاضا مخلخلا وهو ما عليه الجبل بالفعل ، فما الاشكال الجامدة الا وهم ، وكل شيء يتألف من ذرات ·

وما يقوله المفسرون القدامى من أن هذه الآية تصف مايحدث يوم القيامة ·· هو تفسير غير صحيح لأن يوم القيامة هو يوم اليقين والعيان القاطع ولا يقال فى مثل هذا اليوم « ترى الجبال تحسبها » ·· فلا موجب لشك فى ذلك اليوم ··

« ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفا »

(طه - ١٠٥)

هذه هي القيامة بحق ، لامجال هنا لأن تنظر العين فتحسب الشيء قائما وهو ينسف ٠٠ فالآية اذن وصف الحال الجبال في الدنيا ولا يمكن أن تكون غير ذلك ٠

ثم يروى لنا القرآن بعد ذلك ما يحدث لمياه الأمطار :

« ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الارض »

(الزمر - ٢١)

وهو بذلك يشرح دورة المياه الجوفية من السماء الى سطح الارض الى جوفها الى خزانات جوفية ثم الى نافورات وينابيع تعود الى سطح الارض من جديد ٠

ثم يأتي ذكر الحياة :

« وجعلنا من الماء كل شيء حي »

(الانبياء - ٣٠)

« والله خلق كل دابة من ماء »

(النور - ٤٥)

« أكفرت بالذي خلقك من تراب »

(الكهف - ٣٧)

« واذ قال ربك للملائكة اني خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون »

(الحجر - ٢٨)

والحمأ المسنون هو الطين المنتن المختمر ٠

فهو مرة يذكر أن الحياة خلقت من الماء ومرة يذكر أنها خلقت من تراب ثم يعود فيخصص ويقول من الطين أو على وجه الدقة الماء المنتن المختمر المختلط بالتراب ٠٠ وهو اتفاق غريب

ودقيق مع اكتشافات العلم بعد ألف وأربعمائة سنة ·
وفى سورة الاعراف يروى بتفصيل أكثر :

« ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة أسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس لم يكن من الساجدين »

(الأعراف - ١١)

وفى هذه الآية يحدد أن خلق الانسان تم على مراحل زمنية **«خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة أسجدوا لآدم»** والزمن بالمعنى الالهى طويل جدا · « **وان يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون** »

(الحج - ٤٧)

وفى مكان آخر : « **تعرج الملائكة والروح اليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة** »

(المعارج - ٤)

هذه اذن أيام الله ·· وهى شىء كالآباد والاحقاب بالنسبة لنا ، فاذا قال الله خلقناكم ثم صورناكم ·· ثم اكتملت الصورة بتخليق آدم فقلنا للملائكة اسجدوا لآدم ·· معنى هذا ان آدم جاء عبر مراحل من التخليق والتصوير والتسوية استغرقت ملايين السنين بزماننا وأياما بزمن الله الابدى ·· « **وقد خلقكم أطوارا** » ·· ومعناها أنه كانت هناك قبل آدم صور وصنوف من الخلائق جاء هو ذروة لها ·

« هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا »

(الانسان - ١)

اشارة الى مرحلة بائدة من الدهر لم يكن الانسان يساوى فيها شيئا يذكر ٠

ويقول القرآن عن الله أنه هو « **الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى** » أى أنه هدى مسيرة التطور حتى بلغت ذروتها فى آدم ٠

« وما من دابة فى الارض ولا طائر يطير بجناحيه الا امم أمثالكم »

(الأنعام ــ ٣٨)

هنا ربط القرآن بين جميع المخلوقات في وشيجة عائلية واحدة ٠٠ انها كلها أمم أمثالنا ٠

وأعجبنى فى كتاب للمفكر الاسلامي محمود طه بعنوان « رسالة الصلاة » تعبير جميل يقول فيه : ان الله استل آدم استلالا من الماء والطين «**ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين**» انه الانبثاق من الطين درجة درجة وخطوة خطوة من الاميبا الى الاسفنج الى الحيوانات الرخوية الى الحيوانات القشرية الى الفقريات الى الاسماك الى الزواحف الى الطيور الى الثدييات الى أعلى رتبة آدمية بفضل الله وهديه وارشاده ٠٠ ثم يحدثنا القرآن عن تخلق الجنين ٠

« يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق فى ظلمات ثلاث »

(الزمر ــ ٦)

ويكشف لنا الخلق داخل الرحم ، فيصفه بأنه يتم على أطوار ٠٠ خلقا من بعد خلق ٠٠ وانه يجرى داخل ظلمات ثلاث ٠٠ والظلمات الثلاث ، هى ظلمة البطن وظلمة الرحم وظلمة الغلاف الامنيوسى ٠٠ كل غرفة منها داخل الاخرى ٠٠ والجنين فى قلبها ، وهى حقائق تشريحية ٠

كيف جاء القرآن بهذه الموافقات التي اتفقت مع نتائج العلوم والبحوث والجهود المضنية عبر مئات السنين ! • مصادفة ؟!

واذا سلمنا بمصادفة واحدة فكيف نسلم بالباقي ؟

وكيف يخطر على ذهن نبي أمي مشكلات وقضايا وحقائق لا يعرفهـــا عصره •• ولا تظهر الا بعد موته بأكثر من الف وثلاثمائة سنة •

واذا أخذنا بالتفسير الغربي الملحـــد الذي يرى في ذلك الكلام الذي يجيء على لسان محمد صورة من نشـــاط عقـــل باطن انفتح تماما على الحقيقة المطلقة • اذا قلنا هذا فقـــد اعترفنا اعترافا مهذبا جدا وعلميا بالوحي •• فمـــا الحـــق المطلق سوى الله •• وما الانفتـــاح على الله والاتصـــال به الا الوحي بعينه •

ولكن القصة لم تنته •

ان القرآن يزودنا بما هـــو اكثر من كل ما قاله العلم •• فيطلعنا على بعض الغيب •• على ما حدث في الملكوت في الملأ الاعلى قبل الخلق الأرضي لآدم فيروى لنا مرحلة سابقة لهـــذا الخلق •

« لقد خلقنا الانسان في احسن تقويم ثم رددناه اسفل سافلين »

(التين ـ ٤ ـ ٥)

ان ماحدث من انبثاق آدم من الماء والطين على مراحل تطورية في الارض كان ردة وكان انتكاسا وعقابا لخطيئة سوف نفهم تفاصيلها •

فقد خلق الله آدم في البدء في أحسن تقويم كاملا لا عيب فيه لا يمرض ولا يموت ، وخلق له من نفسه زوجة هي حواء واسكنه في كوكب الجنة وأسجد له الملائكة واشـــترط عليه شرطا واحدا لتدوم له هذه النعمه هي الا يأكل من شجرة عينها له •• كل هذا حدث في السماوات ـ وهو من قبيل الغيب المطلق

الذى يرويه لنا القرآن ولا نحيط به بعلمنا ·· وقد جرى فى الازل قبل المرحلة الارضيه للوجود الآدمى ·

ويروى لنا القرآن كيف أن الملائكة سجدوا الآدم :

« الا ابليس كان من الجن ففسق عن امر ربه »

(الكهف ـ ٥٠) ·

ويقول ابليس فى كبرياء وغرور مبررا عصيانه للأمر الالهى بالسجود لآدم ·

« انا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين »

(ص ـ ٧٦)

انه لم يدرك حكمة الله فى تشريف ابن الطين ·· ولكن الله وحده كان يعلم ان آدم سوف يتعذب نتيجة خلقته المتصارعه من التراب ومن الروح وانه سوف يعانى عناء هائلا ويتمزق بين رغبات جسده الهابطة وسبحات روحه وضميره المتعالية ·

« لقد خلقنا الانسان فى كبد »

(البلد ـ ٤)

اى فى مكابدة مستمرة وصراع وعناء ·

ولهذا اسجد الله له الملائكه وسخرهم لخدمته ومعونته لانه علم سريرة ذلك المخلوق الذى له جسم الطين وروح الله واستحقاقه للرعاية فى كل أطواره ·

ولكن ابليس فى كبريائه وغروره وتجبره فاتته هذه الحقيقة ولم يذكر الا انه خلق من نار وأن آدم خلق من طين وانه خلق قبل آدم ·

« والجان خلقناه من قبل من نار السموم »

(الحجر ـ ٢٧)

ونار السموم هى النار الصافية بلا دخان او من الطاقة الخالصة ذاتها ·· وهكذا رفض ابليس السجود لآدم وخرج

من الحضرة الربانية رجيما مطرودا وبدلا من أن يرجع الى الله تائبا آملا فى رحمته ومغفرته ٠٠ فانه يئس تماما من هـــذه الرحمة ٠٠ وهذه هى الخطيئة الثانية ٠٠ ثم أضمر الحقـــد والعداء والانتقام من آدم الذى تصور فيه سببا لطرده وهـذه هى الخطيئة الثالثة ٠٠ انه الشيطان بعينه الذى يحاول أن يخرج من خطيئة بخطيئة وينحدر من هاوية الى هاوية ٠

وهكذا راح يغـرى آدم بالأكل من الشجرة ويزينهـــا له ويصورها بأنها شجرة الخلود وهو يعلم أنها شجرة الموت ٠

« وعصى آدم ربه فغوى »

(طه ـ ١٢١)

لقد منح الله آدم الحرية (اذ نفخ فيه من روحه) وخيره فى أن يختار الدخول فى طاعته فيكون شأنه شأن النجـــوم فى أفلاكها تجرى على نواميس الله الموضوعة وتسلم نفسها لسننه أو يكون حرا مسئولا فيحمل الأمانة ٠

« انا عرضنا الأمانة على السـماوات والأرض والجبـال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان انه كان كان ظلوما جهولا »

(الأحزاب ـ ٧٢)

والانسان لم يدرك مخاطر هذه الأمانة لجهله فظلم نفسه بحملها

ولأن الله كان يعلم مخاطر حمل هذه الامانة ٠٠ وكان يعلم أنها سوف تلقى الانسان فى مهالك الغرور ٠٠ فانه لطفا منـه ورحمة أمره بالطاعة وبالاسلام لكلمة الله بألا يأكل من الشجرة لتدوم له الجنة (جنة الطاعة والاسلام للناموس الالهى) ٠

ولكن الانسان اختار أن يكون حرا مسئولا وأن يخرج على الأمر الالهى (باغراء ابليس) فيأكل من الشجرة ٠٠ وهـكذا وقع عليه التكليف وأصبح محاسبا منذ تلك اللحظة ٠٠ وحق عليه العقاب ٠

وكان العقاب هو الطرد والاهباط من تلك الجنة الى الارض والنزول الى التيه المادى ٠

« لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين »

(التين ـ ٤ ـ ٥)

وأسفل سافلين هى هاوية التيه المادى ٠٠ الى طين المستنقعات ٠٠ هذه المرة الى مجرد جرثومة فى طين الأرض ٠ الى نقطة بدء أولى ٠٠ من الصفر ٠

وكان على آدم أن يخرج من هذا التيه المادى (فى انبثاق متدرج عبر خمسة آلاف مليون سنة كما تقول لنا علوم البيولوجيا وعبر مراحل وأطوار بدأت بالخلية الاولى والأميبا صعدا الى الاسفنج والرخويات والقشريات ٠٠ الخ ٠٠ الخ ٠٠ فى رحلة قاسية وعبر صراعات دامية مع بيئات متعددة تكافح فيها الحياة الوليدة بالمخلب والناب) ٠

انها رحلة أشبه بالخروج من الرحم ٠٠ من رحم الأرض ذاتها ٠

وهي الرحلة التى يعطينا الجنين تلخيصا سريعا لها فى تسعة أشهر ٠

وكان الفرق بين خطيئة آدم وخطيئة الشيطان ٠٠ أن آدم رجع الى الله تائبا طامعا فى رحمته بينما أصر الشيطان على العصيان يائسا من رحمة الله ٠

« فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه »

(البقرة ـ ٣٧)

وأثاب الله آدم على توبته بأن هداه فى رحلته الدامية وأخذ بيده خارجا به من رحم الأرض ومن طين المستنقعات حتى وقف منتصبا على قدميه محاكيا آدم الأول ٠٠ آدم الصورة والمثال الذى خلقه الله فى الملكوت ٠٠ ولكنه هذه المرة آدم جديد يولد

ويمرض ويشيخ ويموت ويكدح ليأكل ويعرق ليعيش .

« واذ قال ربك للمـــلائكة انى جاعل فى الأرض خليفة قالوا اتجعل فيها من يفسد فيها ويسـفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك »

(البقرة ـ ٣٠)

يقول الملائكة ذلك الكلام لأنهم رأوا هذا الآدم وشاهدوه فى رحلته الدموية واطواره الارضية وهو يسفك الدم .
ولكن الله يقول لهم :

« انى أعلم ما لاتعلمون »

(البقرة ـ ٣٠)

وهو يعلم أن ذلك الانسان قد استحق بهذا الصراع المرير درجة أرفع من درجة الملائكة .. وأنه قد اكتسب لياقات تؤهله للخلافة .. وهو يكشف هذه الحقيقة للملائكة :

« وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقـــال أنبئونى بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين قالوا سـبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم قال ياآدم انبئهم بأسمائهم فلما انباهم بأسمائهم قال ألم اقل لكم انى أعلم غيب السماوات والأرض »

(البقرة ـ ٣١ ، ٣٢ـ ، ٣٣)

ها هو ذا آدم الارضى وقد امتلك لياقات أكبـــر من لياقات الملائكة .

ونفهم من هذا أن الله قد جعل من هذا الآدم أول أنبيائه على الأرض .. فكلمة « علم آدم الأسماء كلها » هى بداية الوحى والتنزيل والتعليم الالهى .

والله فى القــرآن « رب » بمعنى مرب وراع ومعلم وهاد رءوف رحيم ودود يعنى بمخلوقاته ويخلق لها الحيل والاسباب ويوفر لها الأرزاق .

وقد وعد الله آدم بارسال الأنبياء لهداية نسله وأولاده ٠

« فاما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون »

(البقرة - ٣٨)

ويشرح لنا القرآن معنى اتباع الانسان لهدى الله ٠٠ وذلك بأن يفطن الانسان الى خطئه ويعود الى الجنة التي ضيعها أبوه ٠٠ جنة الطاعة والاسلام للنواميس الالهية ٠٠ وهذه هى الأنابة والرجعة التي تتكرر فى كل صفحة فى القرآن ٠٠ ان يفطن الانسان الى أنه لا يملك الا ضميره (قدس الأقداس الذى تركه الله حرا بالفعل) فيسلمه خالصا لله ويتجه به مختارا طائعا ٠٠ وقد وكل أمر نفسه الى خالقه وخضع لنواميسه ٠٠

يفعل هذا وقد أدرك أن مشيئة الله واقعة ان طوعا وان كرها ٠٠ وأن الله هو الخالق المهيمن على جميع الأسباب وأنه هو الوحيد الذى يملك الهداية والعلم والقدرة ٠

هناك اذن مرحلتان من خلق آدم ٠٠ آدم المثال الذى خلقه الله فى أحسن تقويم ليكون الى جواره فى الملكوت ٠٠ وآدم الأرضى الذى انبثق من ظلام المادة ومن رحم الأرض ومن أسفل سافلين حيث ألقى به مبعدا مطرودا ٠

وعلى آدم الارضى هذا أن يكافح ليحقق لنفسه التكامل الاول وأن يعود الى أحسن تقويم :

« يا أيها الانسان انك كادح الى ربك كدحا فملاقيه »

(الانشقاق - ٦)

علينا أن نسعى فى هجرة الى الله صاعدين كادحين متخذين الله مثلنا الاعلى : « ولله المثل الأعلى فى السموات والارض » وهذه هى الانابة والرجعة صعدا من عالم الملك الى عالم الملكوت فى محاولة لتحقيق المثال والكمال الاول ٠

وتعود فتطالعنا آيات أخرى غامضة فى القرآن نفهم منها أن

كلا منا نحن ذرية آدم قد عاش هاتين المرحلتين ٠٠ فنقرأ في سورة الاعراف :

« واذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين او تقولوا انما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم افتهلكنا بما فعل المبطلون وكذلك نفصل الآيات ولعلهم يرجعون »

(الاعراف – ١٧٢ – ١٧٣ – ١٧٤)

ان الله يفصل لنا في هذا الآيات واقعة غريبة ٠٠ يفهم منها اننا كنا في حضرة الله قبل النزول الى الارحام (في عالم المثال والملكوت) ربما كارواح لا أحد يدرى ٠٠ وان الله أشهدنا على ربوبيته وأخذ منا ميثاقا بهذا الشهود حتى لا نعود فنكفر ونبرر كفرنا بأننا ضحية الآباء ٠

ونعود فنقرأ عن هذا الميثاق في آيات أكثر غموضا في سورة آل عمران :

« واذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم اصرى (عهدى) قالوا اقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين »

(آل عمران – ٨١)

ها هم الأنبياء مجموعون ليأخذ الله عليهم ميثاقا غليظا بأن يؤيد بعضهم بعضا ٠٠ كيف كان ذلك ٠٠ وأين ٠٠ ومتى ٠٠ هي آيات كواشف تشير الى مرحلة روحية عشناها في الملكوت قبل النزول الى الأرحام ٠٠ والى أنه كان لنا ثمة وجود قبل الميلاد ٠٠ كما أن لنا وجودا بعد الموت ٠٠ شأننا في ذلك شأن آدم الذى بدأ حياته في أحسن تقويم ثم أنزل الى أسفل سافلين ليعاني محنة الاختبار وليحكم عليه بأن يرتفع الى الله

جهادا وكدحا جزاء له على كفره للنعمة التى كان فيها حينما خلقه الله ابتداء وفى أحسن صورة ٠

وفى حديث شريف يشير نبينا محمد الىهذا الوجود الروحى السابق للميلاد حينما يقول : « كنت نبيا وآدم بين الروح والجسد » ٠

ويقول الله فى القرآن لمحمد : « **قل ان صلاتى ونسكى ومحيى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له وبذلك امرت وأنا أول المسلمين** »

(الأنعام ١٦٢ ـ ١٦٣)

وهى كلمات تعنى سبق الوجود المحمدى على جميع الانبياء اذ يعتبر القرآن جميع الانبياء مسلمين ومحمد أولهم ٠

وهى اشارات تدل على وجود روحى سابق على الميلاد كنا فيه فى عالم ملكوتى قبل أن تنزل الى الارحام ٠

●●●

فاذا عدنا الى الشجرة ٠٠ لنسأل ما هى ٠٠ هل هى رمز ٠٠ أم حقيقة ؟ ٠٠ وجدنا أمامنا اختلافا كثيرا ٠

يقول بعض المفسرين أنها شجرة المعرفة وأنها رمز ٠٠ وهو تفسير غير مقبول ٠٠ فالله لم ينه الانسان عن طلب المعرفة بل هو على العكس كان يحضه على طلب العلم ٠

« **وقل رب زدنى علما** »

(طه ـ ١١٤)

« **قل سيروا فى الارض فانظروا كيف بدأ الخلق** »

(العنكبوت ـ ٢٠)

والبعض أخذها بحروفها بدون تأويل على أنها شجرة لها ثمر أشبه بما نرى حولنا من فواكه الدنيا والبعض قال هى شجرة الحنطة أكل منها آدم فجرى عليه ما يجرى علينا من رغبة فى التبرز وقضاء الحاجة لطرد الفضلات وهكذا انكشفت له عورته وطفق يخصف على عورته من ورق الجنة كما جاء فى ظاهر الآية ٠

وأنا أرى أنها رمز للجنس والموت اللذين تلازما في قصة البيولوجيا .. حينما أخذت الكائنات الحية بطريقة التلاقح الجنسي لتتكاثر فكتبت على نفسها طارىء الموت .. ولم تكن الكائنات قبل ذلك تموت بل تتجدد وتعود الى الشباب بالانقسام الذاتي .

كان التلاقح الجنسي هو الشجرة المحرمة التي أكلت منها الحياة فهوت من الخلود الى العدم .. وبالمثل كان زواج آدم وحواء هو زواج اثنين من الخالدين في الجنة .. وفي مثل هذا الزواج لم تكن توجد وظيفة للنكاح والتلاقح الجنسي فالخلود حقيقة قائمة ولا حاجة للنسل لاستمرار الحياة .

وكان الشيطان يعلم أن شجرة النسل هي ايذان ببدء الموت والطرد من جنة الخالدين فكذب على آدم وسول له أنها شجرة الخلود بعينها وأغراه بأن يخالط زوجه بالجسد .

ومما يدل على أن الشجرة رمز للجنس ما يروى القرآن عن آدم وحواء بعد تذوق الشجرة وكيف بدت لهما سوءاتهما (والسوءة هي العورة) وكيف طفقا يغطيانها بأوراق الشجر خجلا .. والخجل من الأعضاء التناسلية لايأتى الا بعد تذوق اللذة منها ولهذا لايخجل الطفل من أعضائه التناسلية ولا يغطيها بينما يخجل البالغ حتى من ذكر اسمها .. ثم نرى القرآن يخاطبهما بعد تذوق الشجرة على أنهما جمع فيقول :

« اهبطوا بعضكم لبعض عدو »

(الاعراف - ٢٤)

بينما كان الخطاب في نفس الآيات قبل الخطيئة الى مثنى :

« فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة »

(الاعراف - ١٩)

ومعنى هذا أن الأكل من الشجرة أدى الى التكاثر .

ومازالت اللذة الجنسية الى الآن رمزا للتهابط الدنيوى والبهيمية .. ومازالت مناط الاغراء والسقوط .. وليس الأكل .

ويقال أن شريعة الطهارة وقطع الغلفة الزائدة من العضو التناسلى كانت الكفارة التي قضى بها آدم على نفسه بعد الخطيئة كمحاولة للخصاء تقززا مما فعل .. ثم أصبحت تقليدا دينيا من يومها .

ولا يوجد مانع من أن تكون الشجرة هي شجرة تؤكل بالفعل فتؤدى الى اطلاق الهرمونات واشتعال الرغبة الجنسية ومن ثم تلقى بآدم الى المخالطة الجنسية وتكون الآية صادقة حرفيا ومجازيا .

ولا يمكننا القطع في هذه المسائل .. ويجب أن نقول أن الشجرة مازالت لغزا .. وان قصة الخلق مازالت من أمور الغيب لا نستطيع أن نقول فيها أكثر من الاجتهاد والله أعلم بكتابه وهو وحده الذى يعلم تأويل ما فيه .

● ● ●

ويحدثناه القرآن فى قصة الخلق عن السموات السبع :

« الذى خلق سبع سموات ومن الارض مثلهن »

(الطلاق - ١٢)

« الذى خلق سبع سماوات طباقا »

(الملك - ٣)

« ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق »

(المؤمنون - ١٧)

« وبنينا فوقكم سبعا شدادا »

(المؤمنون - ١٧)

والسموات السبع سر لا يفهمه العلم ولكن هناك أمرا مثيرا للتأمل . أن يكشف لنا العلم مثلا أن الضوء سبعة الوان هى الوان الطيف وسبع درجات من الاطوال الموجية من الاحمر الى

البنفسجى ثم يعود فيتكرر السلم فى سبع درجات أخرى من تحت الاحمر لفوق البنفسجى ·· وبالمثل السلم الموسيقى سبع درجات ثم تعود الثامنة فتكون جوابا للاولى وهكذا تتكرر النغمات سبعات سبعات ·

هل معنى هذا أننا سوف نكتشف يوما ما أن الوجود مرتب فى سبع درجات فى جميع حالاته ·· وان هناك سلما يكرر نفسه من أسفل سافلين الى أعلى عليين ·· سبع سماوات وسبع أرضين ·· مثلما للضوء سبع درجات والالوان سبع درجات والانغام سبع طبقات ·

هذا مجرد احتمال ·· ولكنه يشير الى أن مافى القرآن من اسرار لا يمكن المرور بها مرورا هينا ·· وانها تحمل مدلولات غاية فى العمق ·

الجنة والجحيم

أحد أسباب انصرافي عن القرآن في شبابي ما قرأته عن انهار العسل وانهار الخمر في الجنة .. وأنا لا أحب العسل ولا أحب الخمر .. فاعتبرت هذه سذاجات وانسحب حكمي على القرآن ثم على الدين كله .

والساذج في واقع الأمر .. لم يكن الا أنا .

فأنا لم أحاول أن أتفهم النص القرآني ولا أن أعكف حتى على ظاهر عباراته فما بال باطنها .. وكنت في عجلة من أمري . وكان الانصراف غايتي وشهوتي .. وغطت هذه الشهوة على كل شيء فضاعت معالم الحقيقة من أمامي .. وفاتتني أمور كانت شديدة الوضوح .

فماذا يقول القرآن في الجنة ؟

« مثل الجنة التي وعد المتقون فيها انهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وانهار من عسل مصفى »

(محمد - ١٥)

والآيه تبدأ بانها ضرب مثل . « **مثل الجنـــة التي وعد المتقون** » وليست ايرادا لأوصاف حرفية . فهذا أمر مستحيل لأن الجنة والجحيم أمور غيبية بالنسبة لنا لايمكن تصويرها في كلمات من قاموسنا .

تماما كما يسألك الطفل عن اللذة الجنسية .. فتحار كيف تصفها له فهي بالنسبة له غيب خارج عن حدود خبراته تماما وبعد أن تعجز عن توصيل المعنى اليه تقول على ســبيل ضرب المثل وعلى سبيل التقريب .. انها شيء مثل السكر .

لقد اخترت له شيئا من خبراته اليومية .

ومع ذلك فما ابعد المعنى .

وما أبعد الفارق بين اللذة الجنسية وبين طعم الســـــكر العادى المبتذل .

وبالمثل كان موقف القرآن في مخاطبة البدوى البسيط .

وكل أمنية البدوى الذى يعيش في هجير الصحراء أن يعثر على نبع ماء عذب .. فكل ما يجد من مياه ماهو الا ينابيع مالحة آسنة .

وكذلك اللبن .. فما أسرع ما يختمر ويتغير طعمه في حر الصحارى .. فيضرب له القرآن المثل من أعز ما يتمنى .

« ان الله لا يستحيي أن يضرب مثــلا ما بعوضــة فمــا فوقها »

(البقرة - ٢٦)

فكل الغاية هى تقريب تلك المعاني المستحيلة بقدر الامكان .

وكل ما جاء عن الجنـــة والجحيم ما هو الا ألوان من ضرب المثال .. وألوان من التقريب وألوان من الرمز .

وفي العهد القديم يصف أشعيا يوم الرضوان قائلا :

« يضع رب الجنود لجميع الشعوب في هذا الجبل وليمة سمائن ووليمة خمر ويمسح السيد الرب الدموع من كل الوجوه »

وفي تراتيل القديس أفرايم :

« ورأيت مساكن الصالحين .. رأيتهم تقطر منهم العطور وتزينهم ضفائر الفاكهة والريحان .. وكل من عف عن الشهوات تلقته الحسان في صدر طهور »

انها صور مشتركة في جميع الاديان .

ولكن القرآن لايتركنا في ضباب الامثلة فما يلبث ان يقطع بالقول الفصل .

« فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون »

(السجدة - ١٧)

انه يحيل القضية كلها الى غيب لا يمكن التعبير عنه بلغة الارض .

هنا كل منى العين والقلب مما لا يمكن تصويره بألفاظ .

أما جهنم فهي شيء فظيع .. لاهو بالحياة ولا هو بالموت .

« ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ومن ورائه عذاب غليظ »

(ابراهيم - ١٧)

« فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة »

(البقرة - ٢٤)

ثم يشرح لنا أكثر :

« لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل ذلك يخوف الله به عباده ياعباد فاتقون »

(الزمر - ١٦)

ها هو ذا يبين لنا حقيقة جديدة ·· فيقول انه يورد الالفاظ للتخويف ·

ولكنه ليس تخويفا على غير أساس ·

انه مثل تخويفك لابنك حينما تحذره من اهمال نظافة أسنانه وتقول له ·· اذا لم تنظف أسنانك بالفرشاة فان الفئران سوف تأكل أسنانك ·· تقول ذلك محبة منك ورحمة لطفلك ·

وبالطبع ·· الفئران لن تأكل أسنانه ··

ولكن التخويف على أساس ·· لأن ما سوف يحدث له اذا أهمل سيكون ألعن من جميع الفئران ·· اذ سوف تتسوس أضراسه ·

ومن جرب الآلام الرهيبة لضرس مسوس ·· يعرف أنها أسوأ من الفئران كلها مجتمعة ·

انه تخويف العزيز الرحيم من شيء سوف يحدث بالفعل وسيكون أسوأ من جميع ما قيل وكتب ·· مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ·

ان العذاب حق ·· والثواب حق ·

وهنا يعترض معترض ·

ألا يتنافى مع رحمة الله ومع عظمته أن يعذب ·· ويعذب من ؟ ·· انسانا مسكينا لا يساوى ذرة أو هباءة في مملكة الله اللانهائية ··

وهو اعتراض كان يشغلنى دائما وكان يصرفنى دائما عن قبول فكرة العذاب وبالتالى عن القرآن وعن الدين كله ·

والسؤال يحتاج منا أن نتعمق معنى كلمة عذاب ·

والله بالفعل لا يعذب ٠
انما هو فقط يعدل ٠
ولو أنه ساوى فى آخرته بين ظالم ومظلوم ٠٠ بين قتيل والقاتل الذى قتله ٠٠ لو أنه فعل ذلك بحجة الرحمة لكان أبعد ما يمكن عن الرحمة ٠٠ وعن العدل ٠٠ فالمساواة بين غير المتساوين ظلم فادح ٠٠ تعالى الله عن أن يقع فيه ٠
ثم هى الفوضى أن يكون الابيض فى عين الله كالاسود ، والاعمى كالبصير ، والميت كالحى ، والذى يسمع كمن لايسمع ٠
والكون ينفى الفوضى ٠
وتأمل كل جزئية فى الكون تكشف لك عن النظام المحكم والقانون الذى لايفوته واحد من ألف من الملى جرام ٠
وحركة الكترون من مدار الى مدار فى داخل الذرة لاتتم الا بحساب ، فهو لابد له أن يعطى حزمة من الطاقة ليقفز الى الخارج قفزة مساوية ، ولابد له أن يمتص حزمة اخرى ليقفز الى الداخل قفزة مساوية ٠٠ انه محاسب فى حركاته ٠٠ وهو الكترون ٠٠ فما بال الانسان العاقل وهو بالنسبة للالكترون كالمجرة والفلك بالنسبة للانسان ٠٠ وقد نفخ الله فيه من روحه فهو شىء عظيم ٠٠ وليس فى هوان الذرة ولا الالكترون ٠
ثم ما معنى أن يموت مظلوما وظالما فيصبح ترابا بلا بعث ويذهب ما حصله من خير وشر وعلم وحكمة سدى ٠
انها تكون مجرد سخافة ٠

« وقالوا ما هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر ومالهم بذلك من علم ان هم الا يظنون »
(الجاثية ـ ٢٤)

وهو ظن خاطىء ٠٠ لان الحياة تكون به مجرد لعبة عبثية وباطل فى باطل ٠

والعقل المتأمل لا يقول هذا أبدا . انه ليتفكر فى خلق الكون ونواميس الفلك المحكمة ويهتف من أعماقه :

« ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك »

(آل عمران - ١٩١)

مستحيل أن ينتهى كل هذا الى باطل .. لابد أن هناك استمرارا بطريقة ما .. ولابد أن تتضح لنا الحكمة من كل هذا فى ميقاتها .

انها قضية عدالة وقضية منطق وليست قضية تعذيب . والواقع أن الله بالفعل لا يعذب .

والذى سوف يحدث لنا بعد البعث هو أن كل واحد ستلازمه رتبته ودرجته التى حصلها فى الدنيا لا أكثر .

« فقد كذبتم فسوف يكون لزاما »

(الفرقان - ٧٧)

فمن عاش لايسمع ولا يعقل ولا يبصر الحق سوف يحشره الله أعمى .

« ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى »

(طه - ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦)

انها مجرد صفتك تلازمك « **سوف يكون لزاما** »
ان الله لايعذبك .. ولكنك تعذب نفسك بجهلك .

« وما ظلمناهم ولكن كانوا انفسهم يظلمون »

(النحل - ١١٨)

من عاش فى الدنيا حيوانا لاهم له الا أن يأكل ويضاجع فهو فى الحياة الثانية له رتبة الحيوان أو الرتبة السفلى بالنسبة لغيره ممن عاشوا يتأملون ويعقلون .

وفى الآخرة تتزايد الفروق وتتضاعف ٠٠ فمــا بين اثنين سوف يكون أكثر بمراحل من فارق الدرجـــة بين حيـــوان وانسان ٠

« انظر كيف فضلنا بعضـــــهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا »

(الاسراء ــ ٢١)

« سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله »

(الانعام ــ ١٢٤)

ان هذا الصغار هو الذى سيعذب ويحرق ٠٠ لانه سيكون حسرة على صاحبه حينما يرى مكانته ومكانة الآخرين ومقــدار ما خسر ومقدار ما كسبوا ٠

« ربنا انك من تدخل النار فقد أخزيته »

(آل عمران ــ ١٩٢)

الله يعتبر الخزى فى هذه الآية أشد من النار ايلاما ٠

وكما يصف الانجيل هذا العالم الآخر « عالم البكاء وصرير الاسنان » ٠ المجرم فيه يصر على أسنانه ندما على ما يرى من من هوان شأنه أمام الدرجات العالية التى أصابها الآخرون٠

ويصف القرآن أهل الجنة فى تلك الدرجات بأنهم المقربون ٠ المقربون من الله ٠٠ من الحق ٠

« فى مقعد صدق عند مليك مقتدر »

(القمر ــ ٥٥)

ويروى لنا أن الله يكلمهم وينظر اليهم وانهم على أسرة الملك متقابلين قد نزع الله ما فى قلوبهم من غل فاصـــبحوا اخوانا متحابين ٠

ويصف الجنة بأنها دار السلام ·· وأنه لا حرب فيهـــا ولا كذب ولا لغو ولا سباب ·

ثم يتأكد المعنى من هذه الآية في سورة الاسراء التى توصى بالتهجد فى الليل ·

« ومن الليل فتهجد به نافلـــة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا »

(الاسراء ـ ٧٩)

انها اذن مسألة مقامات · كل واحـــد يبعث على رتبتـــه ومقامه ·

الله لا يعذب للعذاب

وانما يأتى العذاب واحتراق الصدر من احساس من هم فى أسافل الدرجات بالغيرة والحسد والهـــوان والخسران الابدى الذى لا مخرج منه ·· وسوف يحرق هذا الاحساس الصدور كما تحرقها النار وأكثر ·· وسوف يكون هو النكال والتنكيل ·· ينكل الواحد منا بنفسه بالدرجة التى وضع نفسه فيها والتى انحدر اليها بأعماله فى الدنيا ·

ومما يدل على أن النار فى الآخرة هى غير ما نعرف من نارنا هذه الايات من سورة الاعراف ·

« وشـــهدوا على أنفسهم انهـــم كانــوا كـافرين قال ادخلوا فى أمم قد خلت من قبلكـم من الجن والانس فى النار كلما دخلت أمة لعنت اختها حتى اذا اداركوا فيها جميعا (حتى اذا أدرك بعضهم بعضا) **قالت اخراهـــم لأولاهم ربنا هؤلاء اضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون »**

(الاعراف ـ ٣٧ ، ٣٨)

انه حوار ومكالمة فى النار يجرى بين المعذبين ٠٠ وفى مثل نارنا لايمكن أن يجرى حوار بين اثنين يحترقان ٠

والمعنى الثانى العميـــق فى الآية (**لكل ضـــعف ولكن لا تعلمون** »

ان أمامنا اثنين يتعذب الواحد منهما ضعف الآخر مع أنهم فى نفس المكان ، ومعنى هذا أن العذاب فى الشخص وليس فى المكان ذاته ٠٠ وهذا لا ينفى أن يكون العذاب المذكور حسيا بل انه من الممكن أن يكون معنويا وحسيا فى نفس الوقت (كمـا يحدث أن يتعرض اثنان للحر اللافح فيصاب أحدهما بالصـداع بينما يتحمل الآخر بسبب اختلاف درجات اللياقة عند الاثنين) والصداع ألم حسى ومعنوى ٠

ويروى القرآن عن أهل الجنة وكيف انهم يتـــذكرون وهم يأكلون فاكهة الجنة انهم قد رزقوا أنواع هذه الفاكهة حينمـا كانوا على الارض (مع الفارق فى الجوده)

وكيف ان لهم زوجات فى الجنة ولكنهن زوجات مطهـرات (لســـن كزوجات الارض يعـــانين الحيض والحمل والمخاض شكسات غيورات متسلطات)

تقول الآية عن هؤلاء الصالحين فى الجنة :

« كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذى رزقنا من قبل وأتوا به متشابها ولهم فيها ازواج مطهرة وهم فيها خالدون »

(البقرة ـ ٢٥)

والجنة بهذه الصورة هى درجة ومقام ٠٠ فيها كلما نعرف على الارض ولكن مع تفاوت هائل فى الرتبة ٠٠ تفاوت يفوق التصـــور ٠٠ تفاوت مثل التفـــاوت بين الزمن والابد ومثل التفاوت الذى ذكرناه بين طعم قطعة سكر وطعم اللذة الجنسية الحادة بالنسبة لبالغ ٠

واذا ذكر العسل فى مثل هذه الجنة فهو عسل ولكن لا كما نعرف من عسل واللبن هو اللبن ولكن لا كما نعرف من لبن والنساء لا كما نعرف من نساء ٠

انها ستكون أشياء مدهشة كالغيب بالنســـبة لما نعلم ٠٠ يقول الشاعر عن امرأة يحبها أن جسمها يضىء كأنها صـيغت من النور ٠٠ أنها أحلام يمكن أن تكون هناك حقائق ٠

وبالمثل ما يروى القرآن عن النار ٠٠ فهى نار لا كما نعرف من نار ٠٠ والمعذبون فيها يتكلمون ويتحاورون فاجســـادهم لا يمكن أن تكون لها نفس كيمياء الأجساد كمـا نعلمها والا لتبخرت دخانا فى لحظات ولما استطاعوا ان يتبادلوا كلمة ٠

ومعنى هذا أننا سوف نبعث أجسادا ولكن لا كالاجســاد ٠٠ ربما كيانات لها ذات الهيئة والصورة ولكن من مادة مختلفة هى بالنسبة لنا غيب ٠٠ انها لن تكون الاجساد الترابية التى نتكون منها الآن فى حياتنا الارضية ٠

ولهذا يمكن أن يتضاعف العذاب وتتضاعف المتع حســـيا ومعنويا بطريقة نجهلها ٠٠ وكما يتوزع الناس مراتب ودرجات بحسب لياقاتهم ٠٠٠ تكون لكل مرتبة مواصفاتها الحياتية التى تكفل لمن فيها حظوظا من السعادة أو الشقاء كل حسب قــدره واتصور أن أعلى الناس قدرا فى الجنة هم الذين سيرتفعون عن متع الحواس وجنة الحواس ويختار لهم الرحمن درجة الحيـــاة الروحية الخالصة الى جواره فى سدرة المنتهى حيث لا تـكون اللذة هى لذة طعام ولا لذة شراب ولا لذة حور عين وانما لـذة النظر الى الله فى كماله ولذة تأمل الحق والجمال وصـورة الخير المطلق ٠

انها لذة الجالس على يمين الله « **فى مقعد صدق عنـد مليك مقتدر** »

(القمر ـ ٥٥)

وهي مرتبة المفضلين من الانبياء ومن فى مقامهم .

وهكذا تشتمل الجنة على جميع الدرجات من المتع الحسية ارتفاعا حتى المتع الروحية الخالصة ينال كل منا ما تؤهله له رتبته .

كل هذه آيات كواشف ذات دلالة تدلنا على أن النار ليست هى نارنا ولا الله هو الباطش الارهابى .

وانما الله سوف يبعث كل واحد على رتبته ومقامه ودرجته، لأن هذا عين العدل وهو العادل .

وانما سوف يتأتى العذاب من تفاوت الرتب تفاوتا عظيما ، ثم بالسقوط فى تقييم أبدى لا مخرج منه يلزم صاحبه كما تلزم الاصبع بصمتها .

وهو عذاب أكيد وجحيم أكيد سوف نراه عيانا ويقينا :

« كلا لو تعلمون علم اليقين لترون الجحيم ثم لترونها عين اليقين »

(التكاثر ٥ ـ ٦ ـ ٧)

ولأن الله يعلم أن هذا العذاب سوف يكون رهيبا .. فقد حذرنا وخوفنا بالالفاظ المجلجلة وأرسل لنا الانبياء مبشرين منذرين مؤيدين بالمعجزات والخوارق والآيات والكتب .. فعل ذلك رحمة منه وحنانا وعطفا .. وهو القائل فى حديثه القدسى : « **سبقت رحمتى غضبى** »

وفى سورة الفاتحة يصف نفسه أولا بأنه الرحمن الرحيم قبل أن يقول مالك يوم الدين .. وهو يوم الحساب .. يوم الغضب .. يوم يحق القول على العالمين بلا رجعة .

ولأنه رحيم فقد فتح باب التوبة وإصلاح الخطأ على مصراعيه .

« قل يا عبادى الذين اسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا »

(الزمر ـ ٥٣)

ثم اكمل شروط المغفرة :

« وانى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى »

(طه - ٨٢)

وأمر بالصلاة ٠٠ ثم قال : « ولذكر الله أكبر »
مجرد أن تتذكر أن هناك قوة الهية وأن يتشخص هذا المعنى
ى ذاكرتك وفى أفعالك على الـدوام ٠٠ ينجيك ويحقق لك
ثرط المؤمن ٠٠ ويكون أفضل من صلاة المصلى الذى ليس فى
قلبه ذكر ٠

وكلمة « الذكر » فى القرآن كلمة عميقة المعنى والدلالة ٠
فالقرآن نفسه اسمه ذكر ، والتدين والايمان هومجرد تذكر :

« انمايتذكر اولو الالباب »

(الزمر - ٩)

« واذا ذكروا لا يذكرون »

(الصافات - ١٣)

« انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون »

(الحجر - ٩)

« ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر »

(القمر - ١٧)

« فذكر انما انت مذكر لست عليهم بمسيطر »

(الغاشية - ٢١ ، ٢٢)

« وليتذكر اولو الالباب »

(ص - ٢٩)

« ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا
فاذا هم مبصرون »

(الاعراف - ٢٠١)

وهنا ينبغي أن نقف وقفة تأمل طويلة ٠

فما هو هذا التذكر المطلوب ٠

ان أحدث النظريات النفسية تقول لنا ٠٠ ان المعارف كلها تكون مخبوءة مكنوزة داخل نفس الانسان ولكن تحجبها عنه غرائزه وشهواته ٠ ولهذا فالتعلم هو فى حقيقته تذكر ٠ بارتفاع حجب النفس وشفوفها ٠٠ ولا يكون تعلما من عدم ٠ فالطفل لا يتعلم أن ٢ + ٢ = ٤ وانما هو فقط يتذكر حقيقة باطنة فى روحه ، ولد بها ٠

وبالمثل الاحساس بالجمال والطرب هو نوع من التذكر المبهم لعالم القدس وما فيه ٠٠ عالم الملكوت الذى كنا فيه قبل النزول الى الأرحام ٠

ولهذا السبب فان جمال المرأة مثلا هو جمال زائر وليس جمالا مقيما لأنه ليس جمالها هى ٠٠ وانما هو ظل ينعكس عليها من الملكوت ٠٠ ثم ما يلبث أن يفارقها حينما يتغلب قانون المادة والشيخوخة والتراب ٠

قبل ميلادنا ٠٠ كانت لنا ثمة حياة كأرواح ٠

وفى ذلك تقول الآية القرآنية البديعة :

« وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا »

(الأعراف ــ ١٧٢)

والآية تروى ما كان فى الغيب قبل الخلق الدنيوى ٠

وكل الخلائق مما خلق الله ويخلق وسيخلق مثل الذر فى كفه ينظر اليهم ويشهدهم على أنفسهم ٠٠ ألست بربكم ٠٠ فيقولون بلى شهدنا ٠٠ وهو بهذا يأخذ عليهم ميثاقا غليظا لأنه يعلم أنه بعد الهبوط فى الارحام وانسدال حجاب اللحم الكثيف ونزول غشاوة الحواس والشهوات والغرائز والاهواء أنهم سوف ينسون تماما ٠ وسوف يتخبطون فى نكران وكفر وجهالة ٠

وهو ·· رحمة منه يرسل لهم الانبياء يذكرونهم ·
ويقول لمحمد :

« فذكر انما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر »

(الغاشية – ٢١ ، ٢٢)

ويقول عن الايمان أنه حياة ·

« يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم »

(الأنفال – ٢٤)

لأن اتصال الوجود الدنيـــوى بالتذكر بالوجود الملكوتى الاول ثم بالوجود الاخروى ·· هو فطنة الانسان الى حيـاته بكاملها · وهى الحياة كل الحياة ·

والله ليس بحاجة الى صلاتنا ولا الى صيامنا ·· ولكن نحن المحتاجون ·· لعلنا فى صلاتنا العميقة نتذكر ولعلنا بالعبادة والتوجه نتصل بنبع وجودنا ·· ونستمد منه حياتنا ·

ان الصلاة والعبادة استمداد · نحن الذين نحتاجها لتكون لنا حياة · وليس الله ·· لأن الله هو الحى بذاته المســـتغني بوجوده عن كل شيء ·

أما نحن فلايمكن أن تكون لنا حياة الا بمدد منــه ·· من الله ·· الحى الذى به الحياة ·

ونفهم من هذا أن الله فرض الفروض ووضع شرائع العبادات من أجلنا وليس من أجل أن يشعر بألوهيته · فهو فى غنى عنا ·· وفى غنى عن أن يعذبنا ·· وفى غنى عن أن يطلب منا طلبا أو يفرض علينا فرضا ·

وهو بالفعل لا يفرض علينا فرضـا ولا يطالبنـــا بطلب ولا يقيم علينا عذابا ، كل هذا يبدو من ظاهر العبارات فقط ·

أما باطن القرآن الذى يكشف نفسه لكل من جاهد فى الفهم ، أن الله هو الرحيم مطلق الرحمة العادل مطلق العدل الذى يعطى مطلق العطاء ولا يأخذ شيئا ولا يحتاج لشىء ٠

واذا كان فى الدنيا ألوان من العذاب فهى من عيون رحمته ٠

« ولنذيقنهم من العذاب الادنى دون العذاب الاكبر لعلهم يرجعون »

(السجدة ـ ٢١)

انها محاولات لايقاظ العقل الغافل لعله يتذكر ويرجع وينجو بنفسه من عذاب أكبر فى الطريق ٠ عذاب لن يكون منه مخرج ولا مهرب ٠٠ حينما تحق على كل واحد رتبته ودرجته ٠

ونفهم من القرآن أن سنة الله أن يوقظ الغافلين فى الأرض فيبتليهم بكل صنوف البؤس والمرض والعذاب لعلهم يفطنون الى مافى الدنيا من زوال وما وراءها من حقيقة باقية ٠٠ يفعل هذا رحمة بهم ولأنه يعلم ما ينتظرهم من ناموس عادل لن يلطف بهم ٠٠ حتى اذا نفذت فيهم كل هذه الآلام الدنيوية ولم يتيقظوا ٠٠ فتح الله عليهم أبواب كنوزه ليتمتعوا يأسا منهم ٠

« ولقد أرسلنا الى امم من قبلك فاخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون فلولا (فلو أنهم) **اذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء حتى اذا فرحوا بما أوتوا اخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون** (يائسون تماما) ٠

(الأنعام ـ ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤)

فما يبدو لنا أنه نعمة قد يكون فى الحقيقة نقمة :

« فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم انما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا وتزهق انفسهم وهم كافرون »

(التوبة - ٥٥)

« أيحسبون انما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم فى الخيرات بل لايشعرون »

(المؤمنون - ٥٥ ، ٥٦)

« انما نملى لهم ليزدادوا اثما »

(آل عمران - ١٧٨)

فليس الخير الظاهر فى الدنيا والنعمة الغامرة بعلامة رضا الله فى جميع الأحوال .. ولا عذاب الدنيا وبلاؤها بعلامة غضب الله فى كل حال .. فقد يكون الخير غضبا وقد يكون البلاء لطفا .. ولا يكشف لك عن الحقيقة الا صوت ضميرك .. اذا رأيت البلاء يطهرك فهو نعمة .. واذا رأيت النعمة تطغيك فهى غضب .

ثم يتكلم القرآن عن أهل النعيم :

« ان الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم »

(يونس - ٩٦ ، ٩٧)

وانهم اذ ينزل بهم عذاب الجحيم ليصرخون متوسلين .

« ياليتنا نرد ولا نكذب »

(الانعام - ٢٧)

« ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وانهم لكاذبون »

(الانعام - ٢٨)

ان الله يعلم أنهم لو ردوا للدنيا لعادوا الى كبريائهم ٠

انه جهل واصرار على الجهل لا وسيلة لعلاجه ٠٠ لا الانبياء ولا المعجزات والخوارق والآيات ٠٠ ولا حتى مرور على الجحيم بكاف لردهم الى معرفة ٠

ومن هنا يبدو البقاء في الجحيم رحمة ، فهو بالنسبة لبعض الجبارين الوسيلة الوحيدة الى المعرفة والتقويم ٠

ان الله رحيم دائما حتى فى جحيمه ٠ ولهذا سمى نفسه « الرحمن » ٠٠ أى الرحيم مطلق الرحمة فى جميع الاحوال لمن يستحق ومن لا يستحق ٠ يرحم من يستحق بالجنة ويرحم من لا يستحق بالجحيم ٠٠ فالجحيم كما رأينا هو تعريف لمن لا يعرف ولمن فشلت معه كل وسائل التعريف فهو نوع من الرحمة ٠ ولهذا يقول فى أجمل آياته :

« عذابى أصيب به من اشاء ورحمتى وسعت كل شىء »

(الاعراف - ١٥٦)

فادخل عذابه ضمن رحمته التى وسعت كل شىء ، ويفسر لنا الحساب فيقول :

« اقرا كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا »

(الاسراء - ١٤)

حتى الحساب هنا يبدو أنه حساب النفس للنفس ٠ تعالى ذو الجلال أن يحاسب أمثالنا وأن يعذب أمثالنا ٠

انما قد لزم كل واحد عمله كظله ولا خلاص ٠٠ وحق القول ٠٠ ونفذ العدل الأزلى ٠

ولكن هذه المعانى تضيع فى النظرة المتعجلة والقراءة السطحية والوقوف عند الحروف وعند جلجلة الالفاظ ٠

والالفاظ التى وصف الله بها القيامة كلها الفاظ رهيبة ذات

جلجلة وصلصلة ·· تقرع الأذان كالاجراس ، فهى : الساعة والواقعة ، والقارعة ، والزلزلة ، والدمدمة ، والغاشية والراجفة ، والرادفة ، والزجرة ، والسكرة ، والطامة ، والحاقة والصاخة ·

هل سمعت لفظا اسمه « **الصاخة** » ؟!

انه لفظ يكاد يخرق طبلة الاذن · لأن الله علم أن الواحد منا فى هذه الدنيا تتخطفه الشهوات وتبرق فى عينيه المطامع فهو لا يعقل ·· وهو أصم لايسمع ·

فهتف فى أذنه بهذه الكلمة ·· التى تكاد تخرق السمع من فرط ارتفاع ذبذبتها ليوقظه :

« فاذا جاءت الصاخة يوم يفر المرء من اخيه وامه وابيه »

(عبس ـ ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥)

فعل هذا رحمة ولطفا وحنانا ·· تعالى الله عن أن يعذبنا شهوة فى عذاب ·

وما العذاب الا لزوم ما يلزم وحلول الصفة بموصوفها وانتظام الارواح فى سلم درجاتها الحق وانسدال الستار على هذا العالم الذى يتبارى فيه الناس على نوال مالا يستحقون ·

ونعطى مثلا لهذا التفاوت فى الرتب فيما يشعر به كل منا فى حياته الخاصة ·· من تفاوت المستويات التى يمكن أن يعيش فيها ·· لا نقصد مستويات الدخل ·· وانما نقصد شيئا أعمق ·· نقصد المستويات الوجودية ذاتها ·

فالواحد منا يمكن أن يعيش على مستوى متطلبات جسده ، كل همه أن يأكل ويشرب ويضاجع كالبهيمة ·

ويمكن أن يسكت ذلك السعار الجسدى ليستسلم لسعار آخر هو سعار النفس بين غيرة وحسد وغضب وشماتة ورغبة

في السيطرة وجوع للظهور وتعطش للشهرة واستئثار لأسباب القوة بتكديس الاموال والممتلكات وتربص لاصطياد المناصب .

وأكثر الناس لا يرتفعون عن هذه الدرجة ويموتون عليها ولايكون العقل عندهم الا وسيلة احتيال لبلوغ هذه الاسباب .

والحياة بالنسبة لهذه الكثرة من الناس غابة والشعور الطبيعي هو العدوان وتنازع البقاء والصراع .. والهدف هو التهام كل ما يمكن التهامه وانتهاز مايمكن انتهازه .. والواحد منهم تجده يتأرجح كالبندول من لهيب رغبة الى لهيب رغبة أخرى .. يسلمه مطمع الى مطمع وهو فى ضرام من هذه الرغبات لا ينتهى .

وهناك قلة قليلة تكتشف زيف هذه الحياة وتصحو على ادراك واضح بأن هذا اللون من الحياة عبودية لا حرية . وأنها كانت حياة أشبه بالسخرة والاشغال الشاقة خضوعا لغرائز همجية لا تشبع وأطماع لا مضمون لها ولا معنى ولا قيمة .. كلها الى زوال .

فتبدأ هذه القلة القليلة فى اسكات هذا الصوت وفى تكبيل هذه النفس الهائجة وقد اكتشفت أنها حجاب على الرؤية وتشويش على الفهم .

وهكذا ترتفع هذه القلة القليلة فى الرتبة لتعيش بمنطق آخر .. هو أن تعطى لا أن تأخذ .. وتحب لا أن تكره .. وتصبح هموم هذه القلة هى ادراك الحقيقة .

وعلى هذه القلة تنزل سكينة القلب فيتذكر الواحد منهم ماضيه حينما كان عبدا لسعار نفسه وكأنه خارج من جحيم .

ومثل هؤلاء يموتون وقد انعتقوا من وهم النفس والجسد وبلغوا خلاصهم الروحى وأيقنوا حقيقة ذواتهم كأرواح كانت تبتلى فى تجربة .

وما أشبه الجسد ــ فى الرتبة ــ بالتراب . والنفس بالنار والروح بالنور . وهى مجرد ألفاظ للتقريب . ولكنها تكشف

لنا أن حكاية الرتب هي حكاية حقيقية .. وان كل من يموت على رتبة يبعث عليها وان هذا هو عين العدل وليس تجبرا .. وقد يكون العذاب فوق الوصف اذا تجردت النفــوس من أجسادها الترابية ولم يبق منها الا سعار خالص وجوع بحت واضطرام مطلق برغبات لا ترتوي ثم عدوان بين نفوس شرسة لا هدنة بينها ولا سلام ولا مصالحة الى الأبد .. عـلى عكس أرواح تتعايش في محبة وتتأمل الحق في عالم ملكوتي .

أكاد أجزم بأن ألفاظ القرآن بما فيها من جلجلة وصلصلة حينما تصف الجحيم انما هي نذير حقيقي بعذاب فوق التصور سوف نعذبه لأنفسنا بأنفسنا عدلا وصدقا على رتبة استحقها كل منا بعمله .. وأكاد أضع يدى على الحقيقة .. لاريب فيها .

تعالى الله عن أن يعذبنا شــهوة في عذاب .. وهو الحق العدل الحكم .

وفي أخبار داود أن الله قال له :

« يا داود أبلغ أهل أرضى أنى حبيب لمن احبنى وجليس لمن جالسنى وصاحب لمن صاحبنى ومختار لمن اختارنى . ومطيع لمن أطاعنى .. من طلبنى بالحق وجدنى ومن طلب غيرى لم يجدنى »

أنعم به من رب رحيم .. وتقــدس وتعـــالى عن الظلم والعدوان .

الحلال والحرام

التحريم في القرآن ليس لمجرد التحريم ·
ولا التحليل لمجرد التحليل ·
وانما هو تحليـــل لكل ما هو طيب وتحريم لكل ما هو خبيث :

« ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث »

(الاعراف - ١٥٧)

الله حرم الضار الخبيث ·
وأحل الطيب النافع ··
لم يصدر الامر تسلطا ومعاقبة وتضييقا على الناس ·
وانما أقام شريعته محبة ورحمة ·
اذا لم نفهم هذه الحقيقة الجوهرية فسوف نتوه في حرفيات لا آخر لها وتضيع منا روح القرآن كلية ·
وعلى سبيل المثال نأخذ هذه الآية :

« قل للمؤمنين يغضوا من ابصارهم »

(النور - ٣٠)

« وقل للمؤمنات يغضضن من ابصارهن »

(النور ـ ٣١)

لو أخذنا الآية بظاهر حروفها دون آن يكون جوهر القضية واضحا فى الذهن فسوف نجد أن الحياة الطبيعية فى زمننا (زمن المينى جيب ·· والديكولتيه ، والجابونيز ، والصدرالعريان ، والشعر المرسل والبارو كات الذهب) .أمر صعب والسير فى شارع مثل عماد الدين أو فؤاد أو سليمان باشا سيرا مطابقا لحروف الآية هو الامر العسير ·

وهناك أكثر من نوع من النظر فما هو نـــوع غض البصر المقصود ·

لابد من العودة الى جوهر التحريم لنفهم الآية ·

والله حرم الضار الخبيث ·

ومجرد ارسال النظر لا ضرر منه ولكن الضرر فيما يجرى فى القلب والعقل نتيجة امعان النظر الخبيث ·

أن تتخطف العقل والقلب الشهوات فيفقد الانسان هدفــه وينسى وجهته ويتشتت ·· ويأخذ سبيله وراء ظهر عـــريان وينسى المشوار الذى جاء من أجله ·

مثل هذا الانسان فقد حريته ·

ولم تعد المسألة مسالة نظرة ·

وانما أصبحت عبودية وذلا وتبعية وهبوطا من ذروة انسانية الى حالة أشبه بحالة كلب يتشمم ·· وانسان لا يعرف لنفسه خلاصا من هاتين الساقين أو من هذا الظهر ·

ها هنا قد وقع ضرر بالفعل ·

وها هنا يبدو معنى الآية ·

أن ينظر الانسان بشهواته لا بعينيه ·

ولا ضرر فى انسان تقوده عيناه فى طريقه ·

ولكن المهانة والضرر فى انسان تقوده شهوته ·

ونحن قد نرى وجها فنهتف بالقلب اعجابا « الله » ونقصد الخالق الذي صور وليس المخلوق . فلا تكون هذه النظرة حلالا فقط .. وانما تكتب لنا حسنة .. وهي نظرة لا يقدر عليها الا متصوف عابد يرى قدرة الله في كل شيء وابداع صنع الله على وجه كل شيء .

« وصوركم فاحسن صوركم »

(غافر - ٦٤)

وهو رجل قد غفل عن الخلق فلم يعد يرى الا الخالق .

والحال مختلف بالنسبة لرجل آخر ينظر فيفكر في اللهط . ويسيل لعابه وتخرج عيناه من محاجرهما جموحا وشهوة ويفقد السيطرة على نفسه وينسى المصلحة التي جاءت به الى المكان .. وتجري رجلاه المرتعشتان وراء اللحم الابيض .. لايعرف كيف يحكمهما .

مثل هذه الحالة من الهبوط قد تنتهي بصاحبها الى صفعة على صدغه تفيقه ، أو الى محضر في بوليس الآداب ، أو الى قصة تبدأ بدقائق لذيذة ثم تنتهي بحادث نشل ، أو الى علاقة جنسية تنتهي الى مستشفى الحوض المرصود لعلاج مرض سرى مزمن .

وحكمة الآية القرآنية واضحة في مثل هذا النوع من النظر . والذوق السليم ينفر بالفطرة ويعف عن مثل هذا التحديق .. لانه ضرر . ولهذا أمر القرآن المرأة المؤمنة بأن تدني عليها جلبابها ابتعادا بها عن مزالق الاثارة والاستثارة .

وهنا نصل الى جوهر التحريم .

فالتحريم دائما لضرر .

والله أقام شريعته محبة ورحمة لا تسلطا وغطرسة .

فاذا انتفى الضرر .. فأنت في المنطقة الحلال .. مادمت لا تضر نفسك ولا تضر غيرك .

وغض البصر ليس فقط غض البصر عما يتعرى من الجسد ·
وانما هو أيضا غض للبصر عما في يد الناس من مال ونعمة ، وهو الحياء والترفع عن النزول بالنفس الى مواطن الشهوة والحسد والحقد والغيرة ·

ومن اكبر الذنوب عند الله التعصب ·· ان تتعصب لنفسك أو عائلتك ·· وان تميل مع الهوى ·· وتأخذك حمية العنصرية وكبرياء العرق والجنس ·

والمتعصب انسان يعبد نفسه ·· يعبد فهمه المحدود وليس الله فهو مشرك ·

وجوهر الدين هو أن تتجاوز نفسك وتتخطاها وتنكرها وتكبح شهواتك وتلجم أهواءك وتتحرر من أطماعك وتطلعاتك وتخلص من غرورك وكبرك وعنادك ·· فكل هذه أغلال ، والدين يحرمها ليخلصك من أسرها ·

وأبغض الحرام الى الله الشرك ·· أو عبادة غير الله ·

والشرك ليس فقط عبادة الاصنام فهذا لون قديم ساذج من الشرك انتهى أمره ·

والاصنام الآن هي غير اللات والعزى وهبل ·

وأخطر الاصنام هي الاصنام المجردة وهي ما يعبد الآن في كل مكان ·

أن تتخذ نفسك صنما ·· أن تعبد رأيك وهواك ومصلحتك فلا يشغلك الا نفسك ·

« أفرأيت من اتخذ الهه هواه »

(الجاثية ـ ٢٣)

وهذا هو اله اليوم الذى يحرق له البخور وتقدم له القرابين من دم الآخرين ·

وسوف نعود الى ميزان الحرام والحلال · ونقول : وماالضرر؟ ما الضرر في أن يعبد الانسان نفسه ولا يرى غير مصلحته ؟

والضرر واضح بين ·· فلن تكون حياة مثل هذا الانسان حياة ·

سوف يقضى حياته فى سجن من المرايا كلما تطلع الى جدار لم ير فيه الاصورته ·

سوف يكذب ويسرق ويقتل ويستغل ·· ولن تصل الى أذنيه آلام الآخرين لأنه لا يرى الا نفسه وما يكسب وما يربح وما يرفع من عقار وما يقتنى من أرض وما يكدس من مال ·

سوف تصبح نفسه حجابا بينه وبين الله وحجابا بينه وبين الحقيقة ،وحجابا بينه وبين العدل ·

وعن مثل هؤلاء الناس يقول القرآن ·

« وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لايبصرون »

(يس - ٩)

وما السد الذى بين يديك ومن خلفك ومحيط بك بدرجة تحول بينك وبين الابصار كأنه غشاوة ·· الا نفسك ·

ويقول فى سورة أخرى ·

« فلا اقتحم العقبة وما أدراك ما العقبة فك رقبة »

(البلد - ١١ ، ١٢ ، ١٣)

يقول لك ·· « وما أدراك ما العقبة » ليحضك على التساؤل والتفكير فى تلك العقبة فأمرها يغمض عليك ·· لأنها هى نفسك ذاتها ·· ولا عقبة أمامك سوى نفسك وعليك أن تقتحمها لتستطيع أن تفعل أى خير فتفك رقبة من تستغل وتستعبد ·· ولن تستطيع أن تفك رقبة من تستعبد · الا إذا فطنت الى استعباد نفسك لك وفككت عنك أغلالها ·· فلن تستطيع أن تحرر انسانا الا اذا بدأت فحررت نفسك أولا ··

وبعد ذلك سوف تجد أن أى خير سيصبح ممكنا ·· سوف تستطيع أن تحب وتعطى وتجود وتمنح ·

ولهذا نقرأ فى القرآن :

« ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة»

(التوبة – ١١١)

« فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم »

(البقرة – ٥٤)

بمعنى فاهزموا أنفسكم وانتصروا عليها ·

وفى الانجيل يقول المسيح بنفس المعنى :

« من أراد أن يخلص نفسه يهلكها · ومن يهلك نفسه من أجلى يجدها ، لأنه ماذا ينتفع الانسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه » ·

ويقول الله لداود :

« اقطع شهوتك وتحبب الى بمعاداة نفسك ·· ضعنى بين عينيك وانظر الى ببصر قلبك ·· واعلم أنه ما اطمأن عبد الى نفسه الا وكلته اليها فأهلكته »

ولهذا كان ذلك الشرك الخفى الذى يمارسه الانسان بعبادته لنفسه هو منتهى الحرام وذروة الخطيئة·· لأنه يحتوى على جميع الخطايا الاخرى فى داخله ولانه هلاك لا هلاك بعده ·

وكل ما تعبد من دون الله شرك ·· اذا كنت عبدا لنفسك وهواك ومصلحتك فأنت مشرك ·· واذا كنت عبدا لعصبية العائلة أو القبيلة أو العنصر أو الجنس فأنت مشرك ·· واذا استعبدتك فكرة مجردة أو نظرية فسدت عليك مسالك تفكيرك فأصبحت ترفض مناقشة أى فكرة أخرى فانت راكع أمام صنم

وان كان صنما مجردا ومنحوتا من الفلسفة لا من المادة ٠

ولهذا اعتبر القرآن الشرك خطيئة لا تغتفر لأنه عمى للعين والبصيرة والعقل وشلل لجميع المدارك وتوقف لنمو الـروح وتعطيل لها فى هجرتها الى منبع نورها ٠

« انالله لايغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء »

(النساء ـ ٤٨)

لأن الشرك فى الحقيقة أشبه بانقطاع الحبـــل السرى الذى يفصم الصلة بين الجنين ومصدر حياته ٠٠ بين الانسان والله ٠

وماذا يحدث لو أن زهرة عباد الشمس انصرفت عن الشمس وأعطت ظهرها لها واتجهت الى القمر مثلا ٠٠ انها ببســـاطة تموت ٠٠ فالشمس هى مصدر حياتها ٠٠ وهى لا تعبـــد الشمس ذلا ٠٠ وانما لأن الشمس حياتها ٠

« يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم »

(الانفال ـ ٢٤)

والعبادة حياة واستمداد للنور والحق ٠

والله أمر بالعبادة لأنه يعلم أن فيها حياتنا ٠٠ ولم يأمر بها تسلطا وتجبرا ولمجرد فرض أوامر ٠

ولهذه الاسباب حرم الله الخمر وما فى حكمها من المسكرات والمغيبات لما فيها من أضرار ٠

وحرم القمار لما فيه من خسارة وتباغض وعدوان ٠

وحرم الزنا لأنه فوضى تختلط فيها الانساب ٠٠ وتخضع النفوس للنزوات والشهوات والاهواء ٠

وأحل الزواج لأنه تنظيم ونظام ومسئولية وسكينة قلب ٠

وحرم لحم الخنزير ٠٠ ونحن نعلم الآن أن حيوان الخنزير هو مستودع فيروس الانفلونزا والدودة الشريطية ، وانه أغلظ أنواع البروتين واشدها تعقيدا ٠

ولو القينا نظرة على الحيوانات آكلة الخضروات كالغزال والأرنب والحصان والجمل والدجاج والحمار للاحظنا أنها كلها رقيقة وديعة .. بينما الحيوانات آكلة اللحوم كالسباع والنمور والضباع والذئاب والثعالب والنسور والصقور .. كلها تشترك في صفات القسوة والوحشية والضراوة .

ولاشك أن هناك علاقة بين الاسراف في اللحم كطعام .. ونشأة صفات خاصة في النفس .. مثل الحدة والصرامة والقسوة .

ولأن لحم الخنزير هو أكثر اللحوم غلظة وأعقد البروتينات الحيوانية تركيبا فربما كان ضرره على آكله أبلغ من جميع اللحوم الاخرى .. والله يعلم ونحن لا نعلم .

والله هو العقل الكلي المحيط وهو لا يضع سنة بلا سبب .

ولقد أقام التشريع وحرم الحرام وأحل الحلال وفرض العبادة .. محبة منه ورحمة .

ويجب ألا تفوتنا هذه الحقيقة لحظة واحد .. فهي روح الناموس وقلب الشرائع .

ولذلك حرم الله السرقة وحرم القتل .

« من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الارض فكأنما قتل الناس جميعا ، ومن أحياها فكأنما احيا الناس جميعا »

(المائدة ـ ٣٢)

لأن قتل الانسان لأخيه الانسان بلا ذنب هو خرق لجميع النواميس .. لهذا اعتبره الله قتلا للناس جميعا .

وحرم الانتحار .

« ولا تقتلوا انفسكم ان الله كان بكم رحيما ومن يفعل ذلك عدوانا وظلما فسوف نصليه نارا »

(النساء ـ ٢٩ ، ٣٠)

لأن الانتحار هو منتهى سوء الظن بالله والعمى عن رحمته واليأس من عدالته والخرق لنواميسه والجهل بآخرته ، وهو منتهى الظلم للنفس .

« الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيرا »

(الفتح - ٦)

والله حرم الزنا لأن الزنا ضرر .

وهنا سوف يطلع علينا رأى مودرن باريسى متحرر يقول : وما الضرر ؟ أى ضرر فى اثنين يتبادلان لذة بدون زواج لكن بتراض وراء جدران مغلقة وبعيدا عن العيون لا يكذبان على نفسيهما فى شيء .. فما يفعلانه يقومان به حبا ووجدا وغراما . ولا يؤذيان بعملهما مخلوقا .. أين الضرر هنا ؟

ولنفهم الضرر لابد أن نضع الحب والجنس فى اطارهما الطبيعى حيث ارادتهما الطبيعة .

والطبيعة جعلت من العاطفة والجنس وسائل للتكاثر والابقاء على النوع وعمار الدنيا .. جعلت منهما أدوات انتاج .

فاذا اجتمع رجل وامرأة واعتزلا ركنا يتبادلان اللذة بدون تفكير فى زواج أو بناء بيت .. وانما لمجرد اختلاس متعة .. فانهما يحولان الحب والجنس من أدوات انتاج الى أدوات استهلاك ويستهلكان طاقة من أشرف الطاقات الحيه خلقت لتبنى أمما وحضارات ويجعلان منها مجرد وسيلة الى ارتجافات جنسية .

وحينما يجتمع رجلان على شذوذ جنسى .. فانهما يقولان نفس الشيء ، سوف يقولان : اننا اجتمعنا على حب ورضى .. واننا لا نضر أحدا ، واننا نستمتع ولا نؤذى أحدا .

والشذوذ واحد فى الحالين اذا أخذنا القوانين الكونية فى الاعتبار ونظرنا نظرة شاملة الى الموضوع .. فكلا الحالين انحراف بالطاقة الطبيعية عن أهدافها لمجرد دقائق من

الانحرافات الجنسية ·· والفرق هو فرق فى درجة البشاعه · وفى درجة المخالفه للنواميس الطبيعية ·

والرجل والمرأة العاشقان المدلهان حبا وهـــوى ، اللذان يرتمى الواحد منهما فى حضن الآخر ·· ويتعلل كل منهمـا بانه صادق مع نفسه فيما يفعل ·· هما فى الحقيقه كاذبان ·

لأن صدق الانسان مع نفسه لا يكون صدقا حقيقيا الا اذا كان بالمثل صدقا مع الطبع والطبيعة ·

وليكون الانسان صادقا مع نفسه لابد أن يكون صـــادقا مع طبيعته ومع النواميس الكونية العظيمة التى جاءت به الى الدنيا ، والا انقسم وانفصم وانشق على نفسه وتحول الى جسد فى ناحية ·· وروح فى ناحية ·

والتى تحب رجلا بحق ·· لاتقول له : أريد أن أنام معك · وانما تقول له : أريد أن أعيش معك العمر كله · أريدك أن تكون أبا لاولادى وسقفا لبيتى وشرفا لاسمى ورفيقا مصاحبا لرحلة حياتى كلها ·

واذا لم تفعل هذا فانهـــا تكذب على نفســـها ·· وهى خاطئة وان ادعت لنفسها أنها جولييت ·· بل ان الخاطئة التى تبيع عرضها لحاجتها الى اللقمة سوف تتعلل بعذر الجوع ·· أما هى فقد ابتذلت أشرف ما أعطتها الطبيعة بدون دوافع سوى تشنجات ورعشات عابرة وتلك الحكة التى تبحث عن مهدىء بين وقت وآخر بحجة الحب ·· وهو كذب ·· لأن حب المرأة يريد الرجل أبا لأبنائها وسقفا لبيتها ·· لامجرد دواء مؤقت للحكة ·

والزنا اذا تحول الى عادة ثم الى سلوك ومنهج حياة يؤدى الى التفسخ الكامل للكيان ·· والى انفصام الشـــخصية ·· فيصبح الجسد فى ناحية والقلب فى ناحية ·· والـروح فى ناحية ·· وبهذا يتم تخريب الفطرة ، وهذا هو الضرر غاية الضرر ·· ولهذا نقرأ فى الاحصائيات أن أعلى نسبة للجنون

والانتحار تحدث فى السويد رغم السعادة الجنسية وعدم الكبت والتحلل غاية التحلل ·· والسبب هو ذلك الانفصام الذى يحدث للانسان المتحلل فى أعماق روحه فيفقده السلام الداخلى الى الابد ·

وهكذا تأتى التعاليم الدينية لحكمة وأسباب لا لمجرد رغبة الله فى التسلط على خلقه وانما محبة ورحمة وتنبيها لفائدة ·

ويحرم الدين الزواج بين الاخوات ، وبين الام وابنها ، والاب وابنته لأنه يريد أن تنمو فى الاسرة ألوان أخرى من العاطفة غير الشهوة ·· كالامومة والابوة والاخوة والمودة ·· وأن يكون الرباط الاسرى هو التراحم (لأنه هو الرباط الوحيد الباقى) ·· أما ضرام الشهوات فهو يضرم معه الغيرة والرغبة فى التملك فيقتتل الاخوة على أختهم وتتفجر الاسرة من داخلها وتنهار ·

لم يكره الله للانسان الا كل ما هو كريه بالفعل ··ولم يحب له الا كل ما هو محبوب ·

ولذا جعل الطلاق مكروها لكنه ممكن اذا استحالت الحياة ·

وجعل الكذب كبيرة الكبائر ·

« كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون »

(الصف ـ ٣)

والكذب على الله غاية الاثم ·

« ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا »

(الأنعام ـ ٢١ ، ٩٣)

فيكون ادعاء النبوة كذبا والتحريف فى الكتب المقدسة زعما بأن آيات نزلت وهى لم تنزل ·· هو منتهى الحرام ·· لأنه منتهى الاضرار والتضليل للناس ·

هذه هى الشريعة وهذا روحها ·· ان الله أحل الطيبات

وحرم الخبائث ، واذا تطهرت فطرتنا فسوف نحب لنفوسنا ما يحب لها الله بدون جهد وبدون مشقة ٠

ولهذا يزول التناقض فى قلب المؤمن بين الله وشريعته وبين ما تمليه عاطفته الخاصة ويرغب فيه عقله ٠٠ فاذا بما يريده لنفسه هو ما يريده الله له ٠٠ وما يتمناه لنفسه هو ما يتمناه الله له ٠

ولهذا يتوجه ابراهيم بالدعاء قائلا :

« رب اجعلنى مقيم الصلاة »

(ابراهيم - ٤٠)

فيطلب من الله ما يطلبه الله منه ٠

وهذا غاية الايمان والثقة ومنتهى الحب للشريعة ٠٠ حتى لتصبح الشريعة والرغبة شيئا واحدا ٠

ولا تعود للانسان رغبة سوى ما يرغب الله ٠

وهذا درب الذين وصلوا ٠

يقول الله فى حديث قدسى :

« عبدى أطعنى أجعلك ربانيا يدك يدى ولسانك لسانى وبصرك بصرى وارادتك ارادتى ورغبتك رغبتى »

وهؤلاء هم الانبياء والاولياء والمقربون الذين أمدهم الله بأسباب علمه وقدرته ٠

أسماء الله

مستحيل معرفة ذات الله وكنهه · ومستحيل رؤيته لعين بشرية ·· لان العين البشرية لا تدرك الا كل ما هو محدود متناه في المكان محصور بالزمان ·· والله متعال على المكان متعال على الزمان ·· ليس كمثله شيء ·
وفي آيات بديعة الايقاع يقدم لنا القرآن هذه الحقيقة الازلية·

« عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال ·· »

(الرعد – ٩)

« يجادلون في الله وهو شديد المحال »

(الرعد – ١٣)

« وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة الا يعلمها ولا حبة في ظلمات الارض ولا رطب ولا يابس الا في كتاب مبين »

(الانعام – ٥٩)

« ولله يسجد من في السماوات والأرض طوعا وكرها »

(الرعد – ١٥)

الكل يسجد لله ·· من لايسجد طوعا يسجد كرها ·
لان الكل يجرى على سنن الله الطبيعية التى أقامها ويخضع لقوانينه التى رسمها ·
قلب المؤمن وقلب الكافر كلاهما خاضع للقوانين الفسيولوجية التى أبدعها الخالق ·· كلاهما ينبض خاضعا لنفس القوانين ·
وكذلك تنبض كل خلية فى كل جسد ·
وفى ذلك يقول القرآن :

« أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السموات والارض طوعا وكرها واليه يرجعون »

(آل عمران – ٨٣)

الكل أسلم الأمر للقوانين الالهية التى تجرى على سننها الحياه ·
ونعرف الآن الكثير من هذه القوانين مثل :
قانون الضغط الازموزى
وقانون التوتر السطحى
وتماسك العمود المائى
والتوازن الكهربائى والأيونى فى المحاليل ·
وقانون التفاضل الكيميائى بين هورمون وهورمون فيكون الواحد منهما حاكما على الاخر ·
وقانون رفض الفراغ ·
وقانون الفعل ورد الفعل ·
والكثير غيرها مما تجرى الحياة على وفاقها ويطيعها كل مخلوق ويسلم لها طوعا وكرها ·
الله وقوانينه قائم على كل شىء من الذرة الى الفلك ·· به وبقوانينه تقوم الحياة ·
فهو « قيوم »
هو « الحى » الذى به الحياة

وهكذا يقدم لنا القرآن أسماء الله وصفاته وأفعاله فى تسابيح جميله .

« هو الله الذى لا اله الا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر »

(الحشر - ٢٣)

« هو الله الخالق البارىء المصور »

(الحشر - ٢٤)

ويتكلم الله عن نفسه بضمير الجمع .

« ونحن أقرب اليه من حبل الوريد »

(ق - ١٦)

وحبل الوريد هو العرق الذى يجرى به الدم فى الرقبة، فهو أقرب الينا من الدم فى أجسادنا .

وهذا منتهى القرب .

والمتصوفه يقولون أنه يبعد عن ادراكنا لفرط قربه ، ويخفى علينا لفرط ظهوره ، ويشرحون هذا بقولهم أننا عرفنا نور الشمس بغروبه .. وأدركنا ألوان الاشياء من النور وليس من الاشياء .. فهى زرقاء وحمراء وخضراء لانها تمتص أمواجا مختلفة من النور .. وبالظل عرفنا النور .. والله ليس له ضد ليعرف به ، ونورالله مشرق أبدا ولا ظل له .. ولذلك نقول أن الله احتجب عنا لفرط اشراقه ودوامه .

ونحن نولد فى هذه الحضرة الربانية ونحن فاقدو العقل ثم نكبر فتشغلنا الشهوة مع ظهور العقل ثم يشغلنا الجاه والرياسه والدنيا ثم ننضج فيشغلنا العقل نفسه .. وطول هذا الوقت تصبح الحضرة الربانية عرفا . وتصبح عجائب الله فى السماوات والارض وفى أنفسنا عادة .

ويقول الشاعر الصوفي :

وكيف يعرف من بالعرف قد سترا ·

استغراقنا في الاسباب يخفي عنا المسبب ·· كمن يصله كتاب مؤلف فينشغل بالبحث في نوع الحبر ونوع الورق وبنط المطبعه ،وينسى الكلام والمعاني أو ينشغل بالكلام وينسى مبدعه ·

ومن شأن الدوام أن يخفي عنا الحقيقة ــ فدوام حركة المصعد يخفي عنا حركته · لاندرك أنه كان يتحرك الا لحظة وقوفه ·

وبالمثل دوام الله أخفي عنا حضوره وشدة قربه أبعدته عن الادراك وفرط ظهوره أخفاه ·· فهو أخفى من كل خفى لأنه أظهر من كل ظاهر ·· لا يحتجب عنا الا بحجاب وهمنا ·· وهم شهواتنا الذى أسدلناه على أعيننا ·

ويقول ابن عطاء الله السكندرى :

لو حجبه شيء لستره ·· ولو كان له ساتر لكان لوجوده حاصر · وتعالى الله وتقدس عن أن يكون هناك من يحده ويحصره ·

وبالمثل لا يرى الواحد منا سواد عينيه لشدة قربه منه ·

والله عند الصوفيه ليس فى حاجة الى اثبات ·· وانما الدنيا هى التى تغدو محل شك وهى التى تصبح فى حاجة الى اثبات ، وهم يثبتونها بالله · فهى موجودة به وهو لا يوجد بها·

والذين يطلبون الله بالبرهان هم أهل الحجاب · الذين يشهدون الكون ولا يشهدون المكون ·

ويقول ابن عطاء متسائلا :

متى غاب حتى يستدل عليه ؟ ومتى بعد حتى تكون أسباب الدنيا موصلة اليه ؟ ·

وهم يطلبون القرب من الله حبا وليس خوفا من نار أو طلبا لجنة ·· ويقولون أنهم فى هجرة دائمة الى الله · من الاكوان الى المكون ·· وهى غير الهجرة المعروفة على الارض من مكان لآخر ·· وهذه عندهم أشبه بدوران حمار الرحى يبرح المكان

يعود اليه أما الهجرة الحقيقية فهى الانتقال من وطن الملك الى وطن الملكوت ومن وطن الحس الى وطن المعنى ٠

والمتصوفة أهل أطوار وأحوال ولهم آراء طريفه لها عمقها ودلالتها فهم يقولون لك أن المعصيه تكون أفضل أحيانا من الطاعة ٠٠ فرب معصية تؤدى الى الرهبة من الله والى الذل والانكسار ٠٠ وطاعة تؤدى الى الخيلاء والاغترار ٠٠ وهكذا يصبح العاصى أكثر قربا وأدبا مع الله من المطيع ٠

ومن رأى طاعته واختال بها ورأى حسناته واطمأن اليها فان رؤيته لها دليل على أنها ليست حسنات ٠٠ لان الحسنات ترفع الى الله فور حدوثها والكلمة الطيبة تصعد الى الله فلا يراها صاحبها ٠٠ فالصالح الحقيقى لايشعر بأفعاله الصالحة ٠ وانما هو فى رهبة من الله على الدوام ٠٠ وهذا تفسيرهم للآية القرآنية ٠

« اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه »

(فاطر ــ ١٠)

وهم يقولون لك ، أن الشكر ليس كلمة « الحمد لله » وانما الشكر على العطاء ألا تعصى به من أعطاك فتتخذ من نعمته وسيلة الى أذى نفسك وأذى الآخرين ٠ أن الشكر فعل وليس كلمة ٠

والمتصوف واليوجي والراهب كلهم على درب واحد وأصحاب منطق واحد وأسلوب واحد فى الحياة هو الزهد ٠

وهم يرون أن الشهوة حجاب والهوى حجاب وحب الدنيا حجاب ٠٠ كذلك العلم عند عالم مغرور مختال بعلمه من أشد الحجب ٠٠ وكذلك العبادة بالنسبة لعابد مزهو بعبادته والصلاح بالنسبة لصالح متفاخر بصلاحه حجاب ٠

وهكذا يكون العلم أحيانا حجابا على المعلوم والعبادة حجابا على المعبود والصلاح حجابا على رؤية المصلح ٠

ولهذا يفسرون كلام القرآن عن النبى :

« مالهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق »

(الفرقان - ٧)

بأنه الستر الالهى ستر به سر النبوة فى ثوب بشرى عادى لرجل يأكل الطعام ويمشي فى الأسواق .. حتىلايبتذل السر بالاظهار والاشتهار .

واليوجىوالراهب والصوفى المسلم يطلبون القرب والوصل بنفس الاسلوب .. بالتسابيح .. فيدعون الله بأسمائه :

« ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها »

(الأعراف - ١٨٠)

وهناك يوجا خاصة بالتسابيح اسمها « المانترايوجا » من كلمة « مانترام » الهندية أى تسبيحه .

ومن التسابيح السنسكريتيه أن ينلو اليوجى فى خشوع كلمة « رهيم .. رهام » . آلاف المرات .. وهى كلمات تقابل .. رحيم .. رحمن .. عندنا وهى من أسماء الله بالسنسكريتية .

ويضع اليوجى فى عنقه مسابح طويله من ألف حبة .
والتسبيح الحقيقى فى نظر الغزالى لا يكون بمسبحة ولا يكون باللسان وانما بالقلب .. فى الخلوة والسكون والصمت . مع دق القلب تتلو الروح فى صمت وبدون صوت .. أسماء الله .

« واذكر ربك فى نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول »

(الأعراف - ٢٠٥)

وهى أرقى درجات التصوف ولا يستطيع بلوغها الا من بلغ

سكون النفس وصفاء الروح وامتلك القدرة على حصر الانتباه والتركيز والانصراف الى التأمل بجماع القلب والهمة وقويت عزيمته فقهر شهواته وشواغله الدنيوية وصعد درب السالكين الى الله • وهو صعود أشق من الصعود الى القمر • لانه يقوم على الجهاد الهائل مع النفس •

وأول خطوة للمتصــــوف أن يتغلب على نفسه • فالنفس حجاب ، والعقل حجاب ، والعرف حجاب ، وكل هذه الاشياء هي جلد الانسان الخارجي وليست حقيقته •• ولابد من تجاوز هذه الاسوار حتى يستشرف المتصوف على روحه فى بكارتها ويضع قدمه على عتبتها ليرى مالا عين رأت ويســمع مالا اذن سمعت •

والتصوف ادراك عن طريق المدارك العالية •

والمتصوف عارف •

ولكن هدف معرفتــه هو الله فى كمـــاله •• وليس طلب المعارف الجزئية كالطبيعة والكيمياء والجغرافيا والتاريخ •

انه يسعى الى معرفة كلية بحاسه مختلفة ووسيلة مختلفـة عن وسيلة المنطق وأدوات العلم الوضعي المألوفة •

ولهذا كانت أول عقبة أمام المتصــوف هى نفســـه ذاتها ومألوف عاداته •

« فلا اقتحم العقبة وما ادراك ما العقبة »

(البلد ـ ١١،١٢)

وفى بعض أخبـــار داود انه قال « يارب أين أجـــدك » فقال « اترك نفسك وتعال •• غب عنها تجدنى »

وفى هذا يفسر بعض المتصوفة كلام الله لموسى فى القرآن:

« فاخلع نعليك انك بالوادى المقدس طوى »

(طه - ١٢)

ان المقصود بالنعلين هما النفس والجسد .. هوى النفس وملذات الجسد .. فلا لقاء بالله الا بعد أن يخلع الانسان النعلين : نفسه وجسده بالموت أو بالزهد .

والله يصورهما كنعلين لانهما القدمان اللتان تخوض بهما الروح فى عالم المادة وعن طريقهما نزلت من سماواتها الى الارض .

ولهذا يبادر المتصوف بأن يخلع النعلين ليخطو أول خطوة فى الوادى المقدس .

والقرآن يخبرنا أنه بعد الموت والبعث يتم الشهود فنرى الله ونلقاه .

« واتقوا الله واعلموا انكم ملاقوه وبشر المؤمنين »

(البقرة - ٢٢٣)

« وكلهم آتيه يوم القيامة فردا »

(مريم - ٩٥)

« يا أيها الانسان انك كادح الى ربك كدحا فملاقيه »

(الانشقاق - ٦)

« ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة »

(الانعام - ٩٤)

« وجاء ربك والملك صفا صفا »

(الفجر - ٢٢)

« وعنت الوجوه للحى القيوم وقد خاب من حمل ظلما »

(طه - ١١١)

« ولو ترى اذ المجرمون ناكسو رؤوسهم عند ربهم »

(السجدة – ١٢)

« تحيتهم يوم يلقونه سلام وأعد لهم أجرا كريما »

(الاحزاب – ٤٤)

« يوم يبعثهم الله جميعا فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء الا أنهم هم الكاذبون »

(المجادلة – ١٨)

« هل ينظرون الا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة وقضي الامر »

(البقرة – ٢١٠)

وقد أنكرت بعض الفرق الاسلامية امكانية رؤية الله في الآخرة وفسرت هذه الآيات بأنها رموز واشارات ومجاز لا حقيقة • وأنها تفهم على باطنها لا على ظاهرها •

وكانت حجتها أن العين لاترى الا المحدود المتناهي في الزمن والمكان ، والله لا محدود ولا متناه ومتعال على الزمان والمكان وبالتالي لايمكن لعين أن تراه •• وهي حجة واهية وتصور مادي دنيوي •• فهم يتصورون أن الروح سوف تبصر بعين مادية في الآخرة وستكون لها حدقة وأجفان وستظل ملابسة للزمان والمكان المعروف في الدنيا • وهو أمر ينكره القرآن فيقول عن النشأة الاخرى « **وينشئكم فيما لا تعلمون** » أي أنه سوف ينشئنا نشأة مختلفة تماما عن كل ما نعلم ••

ولا غرابة في أن يكون للروح بصر شامل يدرك اللامحدود •• وأن ترى الله كما يراه الملائكة •

والقرآن يعرفنا بتسع وتسعين اسما من أسماء الله الحسنى • بعض هذه الاسماء مما يختص الله به نفسه مثل

اسم« الله » وأسـمـاء أخرى مثل الكريم والحليم والـرءوف والودود نطلقها على أنفسنا فنقول عن الواحد منا أنه كـريم وحليم ورءوف وودود ولكن لايصح أن نقول أنه « الله » لانـه اسم علم على الذات الالهية بينما الاسـماء الاخرى أسـمـاء للصفات والافعال الالهية ، والذات الالهية سر مطلسـم ليس لبشر أن يخوض فيه ٠٠ أما الصفات والافعال فلنا أن نتأمل فيها ٠

والله يجيب من يدعوه بأسمائه ٠

« ادعونى أستجب لكم »

(غافر – ٦٠)

« واذا سألك عبادى عنى فانى قريب اجيب دعوة الداع اذا دعان »

(البقرة – ١٨٦)

وهى حقيقة ٠ ولكن الوسيلة اليها ليست مجرد شـقشقة اللسان بأن نقول يارب ٠٠ فكل واحد يقول يارب ٠٠ بعقل فارغ تماما عن مدلول الكلمة ٠٠ انما النداء على الله أمر جليل ٠٠ وهو صميم التصوف ٠٠ بل هو التصـوف ذاته ٠٠ ولا يقدر عليه الا أصحاب القلوب والبصائر والهمم العالية ٠

وهذا لا يعنى أنه لابـد أن تكون درويشـا لتدعو الله فيستجيب ٠٠ وانما طهر القلب وخلوص الضمير والتوجـه بجمع الهمة هو الشرط ٠

أما الذى يقول ٠٠ يارب ارزقنى مائة جنيه ٠٠ فهو رجل يمزح مزاحا سخيفا ٠٠ فهذه امور يمـكن أن يسعى اليهـا بأسبابها الدنيوية المعـروفة وليس طريقها التصـوف ٠٠ وكشك سجاير على ناصية عماد الدين يحل المشكلة ٠

والمتصوف متجرد ٠٠ وهو قد نفى المطلب الدنيوى مـن باله لانه يريد مطلبا أعظم ٠

والمتصوف لا يسأل ٠٠ وهو يمرض فلا يسأل الله الشفاء ويقول في أدب ٠٠ كيف أجعل لنفسى ارادة الى جانب ارادة الله ٠٠ فأسأله ما لم يفعل ٠٠ وأنا الذى لا أعلم ما ينفعنى مما يضرنى ٠٠ كيف يعترض الذى لا يعلم على الذى يعلم ٠٠ ومن يدرينى أن مرضى وآلامى ليست الوسيلة الى خلاصى ٠

وهو من باب الادب لا يطلب من الله الا ما يطلبه الله منه ٠٠ فيقول كما قال النبى ابراهيم :

« رب اجعلنى مقيم الصلاة »

(ابراهيم ــ ٤٠)

فهو يجعل من ارادة الله ارادته الخاصة ومسعاه ٠٠ حبا واحتراما لخالقه ٠

والحب هدف المتصوف الاسمى ٠

ليس لى فى الجنان والنار حظ ٠

أنا لا أبتغى بحبى بديلا ٠

وهو لايرى شيئا الا رأى الله فيه ، والله عنده ليس فى حاجة الى عبادتنا ، وهو يفسر الآية القرآنية :

« وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون »

(الذاريات ــ ٥٦)

ان معناها :

ما خلقت الجن والانس الا ليعرفون ٠

فلا يمكن أن تتم عبادة بدون معرفة ولا يمكنك أن تعبد ما لاتعرف ٠٠ انها لا تكون عبادة ٠

وأنت لا تكون عابدا لله الا اذا كنت عارفا بالله ٠

ولا يمكن أن تعرف الله الا اذا عرفت نفسك أولا ثم تجاوزتها مهاجرا الى خالقها ٠

وتتضمن الآية جميع هذه المعارف ·

فالله خلق الانسان ليعرف نفســـه ثم يعرف ربه ·· فيتم بذلك للانسان جلاء البصيرة الكامل والارتقاء الحقيقىعبر صراع الجسد والروح ·

انه الارتقاء والتكامل من خلال معركة دموية بين طبيعـــة التراب وطبيعة الروح ·

« لقد خلقنا الانسان فى كبد »

(البلد - ٤)

خلق الله الانســـان ليكابد هذه المعركة ·· ووعده بميراث السموات والأرض اذا انتصر ·

والعبودية للخالق هى دائما منتهى الحرية أمام الخلق ·

والذل للخالق منتهى الكرامة أمام الخلق ·

فالعبودية لله تعنى أولا التحرر من استعباد المال واســتعباد الشهوة واستعباد المنصب واستعباد الرغبة ·

ومن عبد الله لا يعبد الجماهير والغوغاء طلبا للمنزلة عندها ·

لا تكون عبدا لله الا اذا أفرغت قلبك من كل هذه العبوديات وأسقطت من حسابك كل ما هو غير الله ليكون قلبك خالصـا لخالقك ·

ثم انك لا تصل الى أعلى مرحلة من العبادة الا اذا اســتطعت أن تفنى عن نفسك وتفنى عن رغباتك ·· فيصـــبح ما تريده لنفسك هو ما يريده الله لك ·· كادت ارادتك أن تكون ارادة الله المطلقة ·· وهى ذروة الحرية والخلوص من كل العبوديات ·

والمتصوف انسان مفكر متأمل شفيف الحس نافذ البصر ·

يقول لك المتصوف ·

الصاحب الذى يدوم لك هو الذى يصحبك وهو عالم بعيبك وليس ذلك الا الهك وخالقك العالم بخفاياك المطلع عـــلى سرك

وعلانيتك ٠٠ ان عصيته سترك ٠٠ وان اعتذرت اليه قبل عذرك ٠

ويقول لك :

اذا قل ما تفرح به قل ما تحزن عليه ٠
ان أردت ألا تعزل فلا تتول ولاية لا تدوم ٠
اذا ادعيت لنفسك التواضع فأنت المتكبر حقا ٠

ان كنت لا تعرف الله الا فى النعمة فأنت لا تعبده وانما تعبد نفسك ٠

خلق لك الله الدنيا لتكون في خدمتك فتحولت أنت الى خدمتها ٠٠ أرادك ملكا وأردت لنفسك أن تكون مملوكا ٠

ويقول للفقهاء :

أخذتم علمكم ميتا عن ميت وأخذنا علمنا عن الحى الذى لايموت تقولون حدثنا فلان عن فلان عن فلان وكلهم موتى ٠٠ والواهب الحق علام الغيوب أقرب اليكم من حبل الوريد وهو معكم أينما كنتم ٠٠ مايكون من نجوى ثلاثة الا هو رابعهم ٠ فكيف تتركونه وتأخذون العلم عن سواه ٠

ولهذا يقول المتصوفة عن علمهم بأنه علم لدنى ٠٠ من لدن الله ٠٠ لا علم نقلى من الكتب ٠

ويصفون أنفسهم بأنهم أهل الحضرة ٠٠ ويأخذون أنفسهم بالرياضات الروحية العنيفة والصيام والعبادة المتصلة الى درجة افناء الذات فى الله ٠

وسيلتهم الى الله اسماؤه الحسنى ومحبته القصوى التى تملأ كل ذرة من القلب فلا يعود لهم شاغل الا ذكره ٠٠ لا يرون شيئا الا رأوا الله فيه ٠

هؤلاء هم أهل السر والقرب والشهود الأولياء الصالحون حقا ٠

وهم ندرة شحيحة ٠

اذا حضروا لم يعرفوا واذا غابوا لم يفتقدوا لانهم لا يعلنون عن أنفسهم ويخفى الواحد منهم كراماته كما يخفى عورته لأنها السر الذى بينه وبين ربه وعلامة المحبة والخصوصية والقرب ٠
وما بين المحب والمحبوب لا يصح افشاؤه وابتذاله ٠
وقانونهم ٠

الذى يتكلم لا يعرف ٠
والذى يعرف لا يتكلم ٠

وهم ليسوا دراويش الأرصفة ولا شحاذى المساجد ولا المجاذيب ولا الثرثارين ولا المدعين ولا محترفى الشعوذات ٠
انما هم الاتقياء الاخفياء ٠ يقول عنهم الله فى حديثه القدسى :
« أوليائى تحت قبابى لا يعرفهم غيرى »

ويقول فى حديث آخر عن هذه الخصوصية :
« لم تسعنى أرضى ولا سمائى ووسعنى قلب عبدى المؤمن »
وفى حديث ثالث :

« عبدى أطعنى أجعلك ربانيا يدك يدى ولسانك لسانى وبصرك بصرى »

وما أندر هؤلاء الربانيين فى هذا الزمان ٠

رَب واحِدٌ ودِينٌ وَاحِد

يقرر القرآن بعبارات قاطعة محددة وآيات لا تقبل التأويل وحدة الله المطلقة وأنه لا موجود بحق سواه وان كل ماعداه باطل زائل ٠

وينزل الوحي على محمد ليقول فى كلمات باترة حاسمة :

« فاعلم أنه لا اله الا الله ، واستغفر لذنبك »

(محمد ـ ١٩)

« كل شيء هالك الا وجهه »

(القصص ـ ٨٨)

ويقول المسيح فى الانجيل :

« لا تدعوا لكم أبا على الارض لأن أباكم واحد هو الذى فى السماوات »

« اذهب يا شيطان آنه مكتوب للرب الهك تسجد واياه وحده تعبد »

وتقول التوراة :

« العين لا تشبع من النظر والأذن لا تمتلىء من السمع ٠ كل

تعبك الذى تعبنه تحت الشمس تتركه للذى يأتى بعدك . كما يموت الحكيم يموت الجاهل .. باطل الاباطيل الكل باطل .. كما انك لاتعلم من أين تأتى الريح ولا كيف حال الجنين فى بطن الحبلى كذلك لا تعلم أفعال الله الذى يصنع الجميع » .

ونصف التوراة الله بأنه واحد غير متجسد وغير مركب لا يأكل ولا ينام ولا يعتريه نقص .

وجميع الكتب السماوية من توراة وانجيل وقرآن هى فى صورتها التى نزلت بها كتب توحيد تأمر بالتوحيد .

ويقرر القرآن فى وضوح لا لبس فيه أن جميع أهل الكتاب من يهود ونصارى قبل البعثة المحمدية .. على هدى .. وأن لهم أجرهم يوم القيامة .. واكثر من ذلك يقرر أنه حتى الذين عبدوا الشمس على أنها رمز وآية من آيات الله وهم « الصابئون » أمثال اخناتون هم أيضا على هدى ولهم أجر ومغفرة .

« ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون »

(البقرة ـ ٦٢)

ويذكر القرآن التناحر بين الاديان على أنه جهل :

« وقالت اليهود ليست النصارى على شىء وقالت النصارى ليست اليهود على شىء وهم يتلون الكتاب كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون »

(البقرة ـ ١١٣)

وما فهم هؤلاء المختلفون حقيقة الدين .

فالدين فى حقيقته دين واحد .

« شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا والذى أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه »

(الشورى ـ ١٣)

انه دين واحد من ناحية العقيدة ‥ وقد نزلت شرائع هذا الدين الواحد على مراحل (اختلاف الاديان هو اختلاف من ناحية الشرائع فقط)

« لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا »

(المائدة ـ ٤٨)

ويقول المسيح :

« ما جئت لأنقض الناموس بل لأكمله »

انها مراحل ‥ فى كل مرحلة يبعث الله نبيها المناسب وينزل من الشرائع مايلائم تطور النفس البشرية فى تلك المرحلة ‥

فاذا ارتقت الانسانية وتقدمت وتخطت تلك المرحلة بعث بالرسول الذى يكمل الناموس ليواكب التقدم الروحى الحادث ٠

فى زمن موسى وهو عصر الفراعنة عصر العنف والعنفوان والجبروت ينزل ناموس العدالة على موسى ٠

والعدالة الملائمة لمثل ذلك العصر هى رد الضربة بمثلها ‥ العين بالعين والسن بالسن ٠

فاذا ارتقى الانسان خطوة ‥ نزل ناموس الحب ‥ وجاء المسيح ليقول فى الانجيل :

« سمعتم أنه قيل عين بعين وسن بسن وأما أنا فأقول لكم: لاتقاوموا الشر ‥ بل من لطمك على خدك الأيمن فأدر له الايسر أيضا ‥ ومن سخرك ميلا واحدا فاذهب معه اثنين »

وتصطدم تلك الاخـــــلاقيات الرفيعة بجبروت المتجبرين وصلف الظالمين ويحدث مايحدث للمسيح وللمســيحيين من اضطهاد وحرق وشنق ٠٠ وتمتحن المحبة أســوأ امتحان ٠٠ ويرى فيها كل ظالم وجبار ضعفا وتخاذلا يستغله لحســـابه ليسحق كل من يتكلم باسمها ٠

وكان لابد أن تنزل شريعة محمد لتجمع بين ناموس العدالة وناموس الحب في ناموس واحد هو ناموس الرحمة ٠

وجاء القرآن ليقول :

« وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين واصبر وما صبرك الا بالله »

(النحل - ١٢٦ - ١٢٧)

وبهذا جعل الدفاع عن النفس باستعمال القوة أمرا مشروعا بعد أن كان في الانجيل ممنوعا ٠٠ حتى لا تجـــد النفوس الجبارة مطمعا في ضعف المؤمنين وحتى يكون للحق سند من قوة في أزمان يعلم الله بها ويعلم أنها ستكون أزمانا يسود فيها منطق القوة وحكم الاقوياء ٠

ولكن مع مشروعية الدفاع عن النفس فانه فضل الصــبر وتحمل الاذى على التعجيل بانتقــام ثم في آخــر الآية أمر بالصبر أمرا « **واصبر وما صبرك الا بالله** » ووعد بأن يقــوى الصابر على صبره وأكثر من هذا كان القرآن صريحا في تفضيل المحبة ٠٠ ورد الاساءة بالاحسان وأمر بذلك حرفيا ٠

« أدفع بالتى هى احسن السيئة »

(المؤمنون - ٩٦)

هذا التوليف الدقيق الجامع بين العـــدل والحب في مزاج رحيم مشفق كان هو المزاج المناسب لما تبقى للانســـــان من أحقاب عمره على الارض ٠

وقد علم الله أنه لن يحدث تطور روحى بعد ذلك ٠٠ وان الانسان لن يتطور الا فى أدواته فيصنع العربات والقطارات والطائرات والصواريخ والعلوم الوضعية والمعارف العقلية دون أن يتقدم خطوة واحدة فى روحه فختم الرسالات بمحمد ٠٠ ولم يبق بعد ذلك شىء يقال فى باب العقيدة الروحية على الاقل ٠

وبقى علينا نحن أن نفهم ماقيل ، ولماذا قيل ٠٠ ثم لماذا انقطعت الرسالات عن النزول ولم يعد يقال شىء ٠

لأن لا شىء جد فى روح الانسان على كثرة ماجد فى عقله ومعارفه وحياته المدنية ٠

الدين اذن واحد كما أن الله واحد ٠

والذين اختلفوا لم يفهموا حقيقة نزول الالواح والوصايا والشرائع على مراحل حسب تطور الروح الانسانية ٠

ولكن الله فى القرآن يعود فيوضح ويحدد بطريقة أكثر حسما فيقدم لنا الانبياء فى تعاقبهم وكأنهم رسل دين واحد فيقول بلسان نوح يخاطب الكافرين :

« فما سألتكم من أجر أن أجرى الا على الله وامرت أن أكون من المسلمين »

(يونس ـ ٧٢)

ثم يروى عن ابراهيم وابنه وهما يبنيان الكعبة :

« واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا امة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا انك انت التواب الرحيم »

(البقرة ـ ١٢٧ ـ ١٢٨)

ثم موسى ·

« وقال موسى يا قوم أن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا أن كنتم مسلمين »

(يونس - ٨٤)

ثم فرعون لحظة موته غريقا يقول :

« آمنت انه لا اله الا الذى آمنت به بنو اسرائيل وانا من المسلمين »

(يونس - ٩٠)

ويوسف يقول حينما نصره الله وجمعه على اخوته :

« رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الاحاديث فاطر السماوات والارض انت وليى فى الدنيا والآخرة توفنى مسلما والحقنى بالصالحين »

(يوسف - ١٠١)

ويقول السحرة الذين آمنوا لموسى :

« ربنا افرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين »

(الأعراف - ١٢٦)

ثم يروى عن عيسى والحواريين :

« فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصارى الى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشـــهد بانا مسلمون »

(آل عمران - ٥٢)

انه يقول عن المسيح انه مسلم والحواريون مســـلمون ·· وموسى مسلم والسحرة الذين آمنوا له قد اســلموا وفرعون وهو يتوب لحظة الموت اسلم ويوســف مسلم وابراهيم مسلم واسماعيل مسلم ونوح مسلم ·

الكل اسلم ٠٠

بمعنى أسلم الامر لله اذ أدرك أنه لا موجود بحق ســـواه ولا مقدر للاقدار ومالك للملك سواه ٠

ولكن اختيار لفظ واحد في الكل أمر له مغزى ومراد بذاته لحكمة ٠٠ هى عدم التفريق بين دين ودين ٠

ثم يمضي لاكثر من ذلك فيأمر بعدم التفريق بين رســـول ورسول وعدم تفضيل رســـول على رســـول ٠٠ فيقول عن المؤمنين فى سورة البقرة :

« والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله »

(البقرة ـ ٢٨٥)

لا معنى للتفرقة بين رسول ورسول ، فالمسيحى الصـــالح مسلم لله ٠٠ اذا آمن بجميع الرسل والكتب وبالآخرة وبأن الله واحد ٠

والأديان فى أصلها العقائدى دين واحد وما هى الا مراحل نزلت فيها النواميس على وفاق الطبيعة البشرية وتطورها ٠

« ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لســـت منهم فى شيء انما أمرهم الى الله »

(الانعام ـ ١٥٩)

« ان الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا أولئك هم الكافرون حقا »

(النساء ـ ١٥٠ـ١٥١)

لأن الايمان لايتجزأ ولايمـــكن أن تؤمن بكتاب انزله الله وتكفر بكتاب آخر وتكون مسلما ٠٠ لأن الاسلام هو اســلام

الوجه والأمر لله فى كل ما أتى به من رســـل وكلمات فتكون مؤمنا موحدا مصدقا لله فى كل ماقال لا ناقدا ٠

والمتصوفون المسلمون لهم طـــريقة جميلة فى التعبير عن هذه الوحدة بين الاديان فيقول الواحد منهم عن زميله ان له قدما عيسوية ٠٠ وعن آخر ان له قدما موسوية وعن ثالث أن له قدما محمدية ٠٠ بمعنى أنه يجد طبيعته ومزاجه الروحى فى الشريعة العيسوية فلا يتزوج ويعيش راهبـــا ٠٠ أو فى الشريعة الموسوية الحامية فلا يستطيع أن يكبت انفعالاته ، أو فى الشريعة المحمدية فهو وســـــط دائما معقـــول دائما فى انفعالاته ٠

يقولون هذا عن بعضهم بعضا مع أنهم جميعا مسلمون ٠

وهم بذلك قد فهموا اختلاف الاديان فهما أعمق ٠

لم يفهموها فقط على أنها اختلاف مراحل تاريخية ٠

وانما فهموها أيضا على أنها اختلاف فى المزاج الروحى قد يوجد فى الجماعة الواحدة ٠

بهذه الرحابة فى النظرة ٠

وبهذا الافق المتسع يجب أن نفهم تعدد الاديان ٠٠ لنتخطى التعصب ونشعر بالاديان كلها دينا واحدا ، أنزله الاله الواحد الرحيم ٠

والله قد فتح باب رحمته لكل من جاهد ، واذا كنت زنجيا فى الادغال ولم تتيسر لك رسالة محمد ولم يصـــل اليك القرآن ولم يصلك من الكتب الســـماوية الا الانجيل مترجما بلغتك الزنجية وتوســـلت الى الله به فانت مقبول عند الله ٠٠ واذا كنت من الاسكيمو ولم يصلك أى كتاب ســـــماوى ولكنك جاهدت وادركت وحدانية الله من آياته فى الســـماء ٠٠ من القمر والنجوم التى خلقها ٠٠ وتوسلت الى الله بها (كما فعل

الصابئون امثال اخناتون) فأنت مقبول ·· وكل من جاهد واستخدم كل ماوجد تحت يده من وسائل في هجرته الى الله فهو مقبول ·· وجنة الله مفتوحة الابواب لكل من سعى اليه مجاهدا ومخلصا ·

●●●

وقد تجددت بعد محمد دعوى النبوات ·

وكان يظهر بين وقت وآخر من يدعى أنه نبى مرسل بعد محمد · وأنه جاء بكتاب ·· وانتهى معظم هؤلاء الانبياء الى المشانق ·· وانتهت كتبهم الى النسيان ·

وكان التحدى الذى يواجه أى نبى يدعى النبوة هو أن يأتى بما يدل على هذه الصلة المزعومة بالله ·· عالم الغيب والشهادة ·

وفى العرف والقانون أن البينة على من ادعى ·

من ادعى أنه مبعوث من عند عالم الغيب فعليه بداهة أن يأتينا بعلم جديد من هذا الغيب ونبأ صادق من هذا الغيب ·

ومن يرسله الله للبشر فلابد أن يعطيه بداهة سلطانا على هؤلاء البشر أو سلطانا على قوانينهم الطبيعية فيأتى لهم بخوارق تسكتهم ·· أو يدعم بعثته بكتاب معجز تخشع له القلوب والآذان وتحار فيه العقول والالباب ·· وهو الامر المستحيل بالنسبة لهؤلاء الادعياء ·

وخلاصا من هذا المأزق الازلى كانت خطة هؤلاء المدعين هى هدم دعامة النبوة من أساسها بانكار المعجزة وانكار الغيب حتى لا تبقى وسيلة لامتحان رسالتهم الكاذبة وحتى ينفتح لهم منتدى النبوة على مصراعيه ·

ولأن عادة النبى الجديد أن يعترف بأسرة الانبياء السابقين

وكتبهم ٠٠ فكان لابد لهؤلاء الادعياء الجدد من الاعتراف بالقرآن ٠

وللتوفيق بين اعترافهم بالقرآن وانكارهم للمعجزة والغيب اقتضى الامر تفسيرا مبتدعا للقرآن يوافق الهوى والتضليل والتدجيل ٠

وهكذا اتفقوا جميعا على تفسير القرآن تفسيرا باطنيا ليتخلصوا من ظاهر الحروف ويتحللوا مما توجبه ٠

فالشياطين فى القرآن هى رموز للحواس والرغبات والشهوات ٠

والملائكة هى الخواطر الطيبة الخيرة ٠

وابليس ليس كائنا حقيقيا له وجود حقيقى وانما هو مجرد رمز للشر الذى يسيطر على النفس ٠

والمعجزات التى رواها القرآن للانبياء كانت رموزا لا حقائق فعصا موسى هى الشريعة التى جاء بها ليهدى بها الشعوب ويقودها ٠

« قال هى عصاى أتوكأ عليها واهش بها على غنمى »
(طه ـ ١٨)

وغنمه هم شعبه ٠

فاذا القى بعصاه تحولت الى أفعى والتهمت ثعابين السحرة ولم يحدث أن خرجت من العصا أفعى كما يقول القرآن ٠٠ وانما هم يدعون أن هذا رمز للحجة : حجة الشريعة وبرهانها تلتهم أفاعى الكذب ٠٠ (لقد الجم الناس بحجته وهذا كل ما حدث) ٠

وحينما ضرب موسى البحر بعصاه لم ينشق ٠

وانفلاق البحر الذى يرويه القرآن يفسرونه بأنه رمز

لفرقان الحق من الباطل بواسطة شريعة موسى وحجته (عصاه) ٠

ولم يضم موسى يده الى جناحه ليخرجها بيضاء من غيرسوء وانما هذا رمز لليد الخيرة التى قدمها موسى لفرعون ٠

واحياء عيسى للموتى هو رمز لما فعلته تعاليم عيسى فى النفوس بتنويرها ٠٠ لقد أخرج الجاهل من ظلمة جهله ولم يخرج ميتا من قبره ٠

وبالمثل ابراؤه للأعمى كان ابراء لعمى القلب لاعمى العين ٠

وانزاله للمائدة من السماء هو رمز للغذاء العقلى الذى قدمه للناس لا أكثر ٠

بهذا فسر « ميرزا حسين على » ، الذى لقب نفسه « ببهاء الله » ، القرآن فجرده من فكرة المعجزة ٠٠ والغيب (الملائكة والشياطين) حتى لا تقوم عليه حجة ويطالبه أحد بمعجزة أو بنبأ من الغيب ٠ فلاغيب هناك ٠ ٠ولا امكانية لمعجزة ولم يسبق لنبى أن أتى بمعجزة ٠٠ وانما هى مجرد الدنيا التى نعيشها يأتى الانبياء كما يأتى المصلحون العباقرة فيعلموننا أن نحياها بطريقة أحسن ٠

ومعجزتهم هى هذا الاصلاح الاجتماعى ذاته ٠

وهى رخصة مفتوحة ليدعى أى واحد النبوة ٠٠ وليقول أى مصلح أنه آت من عند الله ٠

ولا أدرى لماذا سمى السيد ميرزا رسالته دينا ٠٠ وأطلق عليها الديانة البهائية ٠٠ وقال أنها القيت اليه من الله ٠

لماذا لم يسمها وجهة نظر اجتماعية الفها تاليفا كما يؤلف المؤلفون أفكارهم بوحى الخاطر والهوى ٠

لماذا أعطى نفسه رخصة بأنه على صلة بما وراء الطبيعة بينما هو لا يعترف بالملأ الاعلى وراء تلك الطبيعة بما فيه من ملائكة ٠

واذا كانت حجته فى هذه المزاعم هى أنه لم ير الملائكة ولا الجن ولا الشياطين فلماذا يلزم بها البشرية وفى هذه البشرية من رأى الجن والملائكة والشياطين وعلم الغيب شهودا ٠

هل الاعمى هو الذى يلزم المبصر ؟

أم أن حجـــة المبصر الواحد تقوم فتلزم ملايين العميـــان الذين لا يرون الشمس اذا رآها مبصر واحد ؟

أتكون الشمس خرافة لا وجود لها اذا أنكر الاعمى رؤيتها ؟ وهل علينا أن نتبع أكثرية العميان لمجرد أنهم أكثرية ونجعل منهم حكما فى أرقى المعارف والالهـــامات البشرية ٠٠ التى تتطلب الرؤية كشرط أول ؟

وكيف يسمى دينا ما يقوم أصلا على العجز عن الرؤية ٠٠ وعلى استحالة الاعجاز ٠٠ وعلى عدم وجود الغيب ملائكـــة وشياطين ٠

هى مجرد أسئلة ٠

وجوابها كلها واحد ٠

انها اختلاقات النبى الذى أراد أن يدخل منتدى الانبيـــاء بلا مؤهلات ٠٠ ويتســـلل الى مائدة الخالـــدين دون أن يمتحن ٠٠ فأنكر المعجزة والغيب حتى لايطالبه أحد بأوراق اعتماده فى السفارة الالهية التى ادعاها ٠

وهو أمر يكشف خطورة التفسير الباطنى للقرآن ٠ وخطورة اغفال ظاهر الحروف ومقتضى الكلمات والعبارات ٠٠ وكيف يمكن أن تؤدى أمثال هذه التفاسير الى اقتـــلاع الدين من أساسه ٠

وهو ماكانت تلجأ اليه بالفعل فرق الخوارج والاثنا عشرية والباطنية والبابية لتطويع القرآن لاغراضها فى هدم بعضها البعض ٠

وهذا ينتهى بنا الى موقف فى التفسير لابد من التزامه ٠٠ هو الارتباط بحرفية العبارة ومدلول الكلمات الظاهر ، لاننتقل الى تأويل باطنى الا باشارة والهام من الكلمات القرآنية ذاتها فنفسر القرآن بالقرآن ظاهرا وباطنا على ألا يتعارض تفسيرنا الباطن مع مدلول الكلمات الظاهر أو يكون نافيا له ٠٠

ولا يكون التفسير الباطنى مقبولا عندى الا اذا كان مؤيدا ومؤكدا للمعنى الظاهر ٠٠ ولا ترخيص فيه الا بضرورة ، وهذه هى الحدود التى تمليها طبيعة هذا الكتاب المحكم ٠٠ الذى لا يتقدم فيه حرف على حرف الا بسبب عميق وضرورة لازمة ٠

بهذا وحده نحفظ للقرآن مقامه ، وللنبوة حرمتها ٠٠ فلا يدعيها مدع ، بعد أن قال الله عن قرآنه أنه قد ختم با الرسالات ٠

الـغـيـب

انفرد القرآن بتخصيص سور طويلة يتلو فيها أنباء وأخبارا وحقائق هي طلاسم من الغيب المحجب • يحـــار فيها عقلنا ولا يملك لها نفيا ولا تأييدا •• وبذلك يتركنا أمام اختيـار صعب في أن نصدق أو نكذب •• نؤمن أو نكفر •• فها هنا حقائق بلا قرائن ملموسة •

وتفسير هذه الامور فى اعتقادى •• بالاضـــافة الى كونها تفضلا الهيا علينا بعلم ما لا نعلم ، أنها امتحان لعمق ايماننا ، ويدل على هذا ماذكره القرآن عن المؤمنين :

« **الذين يخشون ربهم بالغيب** »

(**الانبياء ـ ٤٩**)

و « **الذين يؤمنون بالغيب** »

(**البقرة ـ ٣**)

وتكرر هذا فى أكثر من سورة ، والمقصـــود هم المؤمنون بالقلب الذين لا يطلبون القـــرائن ولا يلحـــون فى براهين ولا يدخلون فى مجادلات ••• ولا يقولون •• أرنا الله لنؤمن به •• وانما يؤمنون به غيبا وقلبا •

ويدل على ذلك ماذكره القرآن عن هواية الجـدل والتقارع بالحجج ... وكيف أوردها كصفة مكروهة فى الانسان .

« وكان الانسان أكثر شيء جدلا »

(الكهف ـ ٥٤)

فالدين احساس قبل أن يكون نظرية تؤخذ بالبرهان .
وهو حالة قلبية أولا قبل أن يكون حالة عقلية .

وكامتحان لهذه الحالة القلبية وهذا الموقف القلبى يطرح علينا الله فى القرآن من الطلاسم الغيبية مالا يمكن أن نقيم عليه برهانا بالسلب أو بالايجاب .

وبهذا يكشفنا أمام نفوسنا .. فاذا نحن نرفض ونكذب بالرغم مما تصورناه فى أنفسنا من ايمـــان .. لأنه لم يكن أكثر من ايمان قشرة .. كان مجرد جدل عقلى .

وأمثال هذه الطلاسم . .الملائكة .. والجن .. والسـاعة والعرش . والكرسى . والصراط . والجنـة . والميـــزان . واللوح . والقلم . . والبرزخ .

وأكبر طلسم ولاشك هو « الشيطان » نفسه .

ابليس وقبيله .. ويقول عنه الله :

« انه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم انا جعلنـــا الشياطين أولياء (أنصارا) **للذين لا يؤمنون »**

(الاعراف ـ ٢٧)

« ومن يعش (ومن ينصرف) **عن ذكر الرحمن نقيـض له شيطانا فهو له قرين** (مصاحب وملازم **»**

(الزخرف ـ ٣٦)

وحكاية هذا القرين الشيطانى تتكرر فى عـــدة أماكن .

ويروى لنا الله يوم القيامة حينما ينكشف لكل واحد قرينه الشيطانى وهو دائما من الجن ، (وكانت وظيفته طوال الحياة الاغراء بالشر) ·· حينما ينكشف له قرينه ويشـاهده فانه يهتف ندمان متحسرا :

« **يا ليت بينى وبينك بعد المشرقين فبئس القرين** »

(الزخرف – ٣٨)

وهى آية شديدة اللطف والخفاء ·· فنحن نعرف أن أبعد نقطتين على الارض هما ما بين المشرق والمغرب ·

ولكنه فى هذه الآية يقول : «**ياليت بينى وبينك بعد المشرقين**» يقصد بذلك أقصى البعد ·

وهو أمر لايمكن تفسيره الا أن يكون مغرب الشمس هو فى نفس الوقت مشرق لها على مكان آخر ·· وهو أمر لا يكون الا على أرض كروية تدور ·· فتصـــبح بذلك كلمة « بعد المشرقين » على أنهما أبعد نقطتين بالفعل ·· أبعد حتى مما بين المشرق والمغرب ·

وهذا المثال يدلك على مدى الخفاء فى القرآن ·· وان فهمه يحتاج الى كل الجهد ·· وان مثل هذه الآيات ما كان يمكن أن أن تفسر فى عصرها وزمانها ·

وهذه اشارة بأن حكاية القرين من الجن هى أيضا أمر غيبى لن يفهم الآن ولكن سوف يتضـــح فى ميقاته وزمانه ، ولكن علينا أن نؤمن اذا كان لنا قلب واحساس وفطرة وروح تذكر ما كان لها فى عالم الملكوت ·

والحقيقـــة أن الايمان بالجن والملائكة قلبا ·· هو دليل كاشف على نوع من التذكر الغامض لعالم القدس والملـكوت وأنه ايمان دال على شىء وليس مجرد تسليم خاو ·

ثم يروى لنا الله فى القرآن أن الانسان لا يترك لقرين الشر من الجن وانما له قرين آخر من الملائكة يلازمه ويلهمه بالخير ·

ويظهر هذا القرين الملائكى ليشهد يوم القيامة ويخبر عن صاحبه ·

« وقال قرينه هذا ما لدى عتيد »

(ق - ٢٣)

ثم هناك ملائكة كاتبون وملائكة حافظون تعمل فى خدمة الانسان دون أن يراها ·

ثم هناك ملائكة العرش ·

« ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية »

(الحاقة - ١٧)

كيف تحمل ثمانية من الملائكة عرش الله ·· ؟ أم هى ثمانية صفوف كل صف فيه مالا نهاية من الملائكة أم هى ثمانية قوانين فيزيقية أو ميتافيزيقية ·· لا أحد يعلم ، فالقرآن لم يحدد وانما قال ثمانية وسكت ، ولم يقل لنا ثمانية ماذا ؟

ثم ماهو العرش ·· أم هو رمز ؟

وما هو الكرسى ؟

انه يوصف فى آية الكرسى بأنه :

« وسع كرسيه السماوات والارض »

(البقرة - ٢٥٥)

ومعنى هذا أن كرسى الله وسع السماوات والارض بما فيهما ·

فاذا كان هذا هو الكرسى فما بال العرش بأسره ·· وكيف تحمله مخلوقات ·

أم هي مخلوقات غير ما نعرف على الاطلاق ·· ولعلها قوى كهرمغنطيسية هائلة ·

ألا تمسك قوانين الجاذبية بالشمس والنجوم فى فضـــاء الكون ؟

وقد يكون « العرش » مجرد كلمة مجازية كما نقول عـن الكعبة مجازا أنها « بيت الله » ·· كذلك نتكلم عن « عـرش الله » ··

ثم هناك جبريل رسول الملائكة وروح القدس ·

ويروى عن النبى أنه رآه مرتين على صورته الحقيقية ·· ويذكر الحديث أن احدى هاتين المرتين كانت فى البقيـــع وفى ليلة مقمرة وأن مرأى ذلك المـــلاك قد سـد الافق وملأ جنبات السماء ·· وأن النبى وقـع مغشـــيا عليه من فرط الرهبة ·

وهو حديث يمكن أن يشك فى صحته ·

ولكن مالايشك فيه هو ماأورده الله عن جبريل فى سـورة النجم متحدثا عن القرآن ·

« ان هو الا وحى يوحى · علمه شديد القوى »

(النجم - ٤ ، ٥)

فوصف جبريل بأنه « شديد القوى » ·

وفى سورة التكوير ·

« انه لقول رسول كريم ذى قوة عند ذى العرش مكين»

(التكوير - ١٩ ، ٢٠)

والرسول الكريم هنا هو جبريل ذو القوة والمكانة عند ذى العرش ·

وحينما يصف الله أحد مخلوقاته بأنه « شـــديد القوى » .

وبأنه ذو القوة والمكانة فلا بد أنه هائل عظيم فى قوته وفى امكانياته ٠

ونفهم من القرآن أن جبريل يمكن أن ينزل الى الارض فى أية صورة ويحمل الوحى الى أى نبى فى أى عصر بأية لغة ٠

وعن بقية الملائكة من ذوى الرتبة العادية ٠٠ يقول القرآن بلسانهم ٠ « **وما منا الا له مقام معلوم** » أى أن كل واحدا يقتصر عمله على دور محدد ووظيفة واحدة ٠٠ لا تتعدد لياقات الملك وكفاياته ووظائفه كما تتعدد وظائف الانسان ومواهبـــه ٠٠ فالانســـان مفضـــل على كثير من الملائكة فالله قد « **علم آدم الأسماء كلها** » وحينما سأل الملائكة عن تلك الاســماء قالوا « **سبحانك لا علم لنا الا ماعلمتنا** »

والاسماء هى عديد المعارف والمواهب التى فضـــل بهـا الانسان على غيره من المخلوقات ٠

ويعلمنا الله أن الملائكة ليس لهم جنس معين فهم ليســوا بالذكور ولا بالاناث وهم لا يتناسلون ولايموتون مثلنا ويؤكد أنهم ليسوا بناته ولا أبناءه بل مجرد مخلوقاته ، وكيف يكون له أبناء وله الملك والملكوت كله وهو الخالق لما يشاء ٠٠ ويقول أنهم يعيشون فى طاعة وليست لهم حرية الانسان فى أن يعصى ٠

« **لا يعصون الله ما امرهم ويفعلون مايؤمرون** »

(**التحريم ــ ٦**)

ويروى الله عن الجن تفصيلا فيقول انهم أمم منهم الصالحون الاخيار ومنهم الكفرة الاشرار ٠٠ وأنهم ذكور واناث وانهم يتناسلون ٠٠ وانهم يستمعون الى ما يدور فى عـــالم الانس ويوسوسون لهم ٠٠ ومنهم المردة الذين يتطاولون فيتسمعون الى ما يجرى فى الملأ الاعلى أملا فى معرفة الغيب فيقذفـــون

بالشهب ويحرقون ، ومنهم من يمس الانسان فيصيبه بالضر ولكنه لايستطيع أن يفعل ذلك الا بمشـــيئة الله ٠ ٠ كما أن الشفاء لايمكن أن يتم الا بمشيئة الله ٠٠ أما محاوله استرضاء الجن بتقديم الذبائح والقرابين لاستجلاب الشـــفاء فهو جهل وشرك ٠٠ كذلك تحضير الجن لتسخيرهم للمنافع أمر يعود فى النهاية بالضرر وليس بالنفع على اصحابه ٠

« كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا »

(الجن ـ ٦)

وعلى لسان الجن يروى القرآن حكاية الاستماع والتسمع ٠

« وانا لمســنا السماء فوجدناها ملئت حرســا شــديدا وشهبا ، وأنا كنا نقعد منها مقاعدللسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصــدا ، وانا لا ندرى أشر أريد بمن فى الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا ، وانا منــا الصــالحون ومنا دون ذلك كنا طرائق قددا »

(الجن ـ من ٨ الى ١١)

ويؤكد القرآن ان الجن لايعرف الغيب وأنه يتسمع دون جدوى لانه معزول عن السمع ٠

« انهم عن السمع لمعزولون »

(الشعراء ـ ٢١٢)

وأنهم يموتون ويبعثون ويحاسبون كأبناء آدم ٠

ويروى ما كانت تفعل الجن ايام سليمان وكيف ســـخرها الله لخدمته ٠

« ومن الجن من يعمل بين يديه باذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير ٠ يعملون له ما يشـاء

من محاريب وتماثيل وجفان كالجـواب (أى أوان هائلة كالحياض) »

(سبا ــ ١٢ ، ١٣)

ثم يروى عن خطف عرش بلقيس :

« **قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقـــوم من مقامك وانى عليه لقوى أمين • قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك فلما رآه مستقرا عنده قال هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر ومن شكر فانما يشكر لنفسه ومن كفر فان ربى غنى كريم** »

(النمل ــ ٣٩ ، ٤٠)

ونفهم من الآية أن « الذى عنده علم من الكتاب » كان اقوى من الجن واقدر فهو قد أتى بالعرش فى لمح البصر •

ومرة اخرى يشير الى جهل الجن فى سورة سبأ •

« **فلما قضينا عليه الموت** (على سـليمان) **ما دلهم على موته الا دابة الارض تأكل منسأته** (عصاه) **فلمـا خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب مالبثـــوا فى العذاب المهين** (عذاب التسخير لسليمان) »

(سبا ــ ١٤)

فهنا رجل يموت وهو واقف على عصاه فلا يكتشف الجن من حوله أنه مات ويظلون على حالهم من السخرة فى خـــدمته •• حتى تأكل حشرة قارضة عصاه من أسفلها •• فيختل توازن جثته وتهوى على الارض •• هنا فقط يدرك الجن أن سـليمان مات وهذا غاية الجهل •

ثم يروى لنا القرآن أن الله علم سليمان لغة الطير ولغـة النمل •

« حتى اذا أتوا على وادى النمل قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهـــم لايشعرون • فتبسم ضاحكا من قولها وقال رب أوزعنى أن اشكر نعمتك التى انعمت على وعلى والدى وان اعمل صالحا ترضاه وادخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين »

(النمل ١٨ ، ١٩)

ومثل هذا الحديث عن لغة النمل كان أمرا مســـتغربا فى الماضى •• ولكن العلم يقول الآن بناء على الشواهد والملاحظات ان النمل له لغة وكذلك النحل •• وكل فصـــائل الحشرات التى تبنى مجتمعات وخلايا وتنظيمات •• فبدون لغة متبادلة كان يستحيل على تلك الالوف المؤلفه من الحشرات أن تنتظم فى حياة وتتوزع بينها الوظائف •

وادراك نملة لسليمان أمر ممكن مثل ادراك سليمان لله •

ثم نأتى الى الشيطان فيعلمنا القرآن أنه من فصيلة الجن هو وقبيله ولكنهم أمهلوافلا يموتون الا اذا قامت الساعة فيـــكون موتهم ثم بعثهم ليخلدوا بعد ذلك فى الجحيم •

والشياطين هم الذين علموا الناس السحر •• ومايفرق به الساحر بين رجل وزوجته •

ويروى القرآن أن اساليب السحر جاءت الى الارض لاول مرة فى بابل نزل بها ملكان هما هاروت وماروت جاءا الى الارض فى شـــكل بشر •• وان الله أراد بنزول هذه الاسرار فتنة الناس وامتحانهم •• ويتكرر دائما فى القرآن وفى أكثر من مكان حكاية امتحان النفس الانسانية بالخير وبالشر •

« كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة »

(الانبياء ـ ٣٥)

والشر فى الآية مذكور قبل الخير كوسيلة امتحان •

ونزلت قصة هاروت وماروت فى سورة البقرة •

« وماكفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما انزل على الملكين ببابل هـــاروت وماروت ومايعلمان من أحد حتى يقولا انما نحن فتنة فلا تكفـر فيتعلمون منهما مايفرقون به بين المرء وزوجه وما هـم بضارين به من أحد الا باذن الله ٠٠ ويتعلمون مايضرهم ولا ينفعهم ٠٠ »

(البقرة ـ ١٠٢)

وبذلك يؤكد الله انه حتى السحر بالضرر لانسان لا يفعل أثره الا بمشيئة الله ٠

وفي ذلك اعتراف ضمني صريح بمسألة السحر ٠٠ وتحقيق عن كيفية نزوله وتاريخه ومكـــانه ٠ ولكنه يدمغ الســـحر والسحرة ٠

« ولايفلح الساحر حيث أتى »

(طه ـ ٦٩)

« أسحر هذا ولا يفلح الساحرون »

(يونس ٧٧)

وهذا السحر الذى يتكلم عنه القرآن ٠٠ والذى جاء ذكره مرة أخرى فى قصة موسى وفرعون ٠٠ حينما جلب فرعـــون السحرة والقوا بحبالهم وعصيهم فاذا هى حيات تسعى ومـرة ثالثة فى حديث السامرى وهو اليهودى الذى صنع بالســحر عجلا من الذهب له خوار ٠٠ ثم حكاية الساحرات النفاثات فى العقد ٠ هذا السحر الذى ورد فى القـــرآن هو علم قـــديم اندثر ٠٠ وهو غير مانرى حولنا ونسمع من شـعوذات ، فلم يبق الآن من السحرة الا أدعياء يتكلمون بما لا يعرفـــون ٠٠ ويزعمون مالا يقدرون ٠٠ أما المخطوطات القديمة التى ضمت معظم هـــذه الأسرار فقد اندثر اكثرها ٠٠ ولـــم تبق الا قصاصات اختلط فيها العلم بالخرافة ٠ وكذلك النداء على الجن

وتحضيره وتسخيره هو الآخر علم شحيح لا يعرفه في اصـــوله الا قليلون .. وهم يشقون بهذه المعرفه ويهلكون .

أما موقف العلم والعقل من هذه الاسرار .. فهو بايجاز أنه لا يعلم ولا يعقل .

وبعض الظواهر التي هي من قبيل الســـحر .. كالتنويم المغنطيسي يعترف بها العلم دون أن يجد لها تفسيرا .

لايعرف العلم الى الآن كيف تتسلط ارداة المنوم على الوسيط وكيف يتصل عقل الاثنين فيصبحان كعقل واحد مايراه المنوم يراه الوسيط النائم . .ومايطلبه المنوم يستجيب له الوسيط فورا ولو كان امرا بالشلل أو الغيبوبه .. أو الارتفـــاع في الهواء .

كل مافعله العلم أنه اطلق على هذه الاشياء اسماء ومصطلحات مثل الايحاء .. والوساطه .. ونشاط العقل الباطن .. مجرد ألفاظ .

وبالمثل ظاهرة كالتليباثي .. والجلاء البصرى ، والكشف ، والهواتف .

كل هذه حقائق أغرب من السحر يسجلها العلم ثم لايعرف لها تفسيرا ولا يعقلها .

فاذا جئنا الى البرزخ .

« ومن ورائهم برزخ الى يوم يبعثون »

(المؤمنون ـ ١٠٠)

ذلك البرزخ الذى يفصل أرواح الموتى عن دنيا الاحياء فان القرآن يعود فيلقى الضوء على معناه فى آيتين منفصلتين .

« وهو الذى مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا »

(الفرقان ـ ٥٣)

والحجر المحجور هو المنع الممنوع المحظور .

والآية تتحدث عن احواض البحار والمحيطات الملحة وانهار المياه العذبة كيف تلتقى ويصب الواحد منها فى الآخر دون أن تمتزج ودون أن تتلوث الانهار العذبة بالملوحة ·· فتظل الانهار عذبة والمحيطات ملحة بما أقام الله من برزخ (فاصل أو حاجز) بينهما ·

ويتكرر نفس الكلام فى آية أخرى بسورة الرحمن ·

« مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لايبغيان »

(الرحمن - ١٩ - ٢٠)

ومن الواضح هنا أن البرزخ ليس مجرد الارض الفاصلة ·· فالارض الفاصلة لم تمنع من مسيل الانهار لتصب فى المحيطات ·· وانما فى القوانين التى جعلت المحيطات فى الخفض من الارض والانهار تنزل اليها من عوالى الجبال ولو حدث العكس لتلوثت كل المياه العذبة ·· ثم أن الله جعل مياه المحيطات ترتفع فى المد (بفعل جاذبية القمر) ولكن بمقدار ولو كان القمر أقرب الى الارض مما هو ·· لكان المد العالى الذى يحدث كفيلا بأن تصب المحيطات فى الانهار فتلوثها ولما وجدنا قطرة ماء نشربها ·

ان البرزخ ·· والحجر المحجور ·· والمنع الممنوع ·· كلها اشارات الى القوانين الفيزيقية التى تمنع وتضبط وتحفظ لكل شىء حدوده ومكانه ·

وهذا يفسر لنا ماقاله القرآن عن الموتى ·

« ومن ورائهم برزخ الى يوم يبعثون »

(المؤمنون - ١٠٠)

فليس معنى البرزخ هنا فاصل مكانى يفصل أرواح الموتى عن دنيا الاحياء ·· وانما معناه القوانين المانعه ·· فالارواح بعد الموت تبدأ حياة ذات قوانين مختلفة · ولهذا يستحيل عليها أن تخاطبنا ويستحيل علينا أن نخاطبها لأن بيننا برزخا ·

هو اختلاف القوانين بين عالمنا وعالم الارواح ·· مع أنها قد تكون حولنا فى ذات اللحظة والمكان ، ولكن الاتصال يظل مستحيلا ومعدوما لاختلاف قوانين وجودها عن قوانين وجودنا وهذا هو البرزخ ·

ومن هذه الآيات نفهم اسلوب القرآن فى التعبير بالشفرة عن الاسرار والغيوب ·· فهو ليس كتابا فى الهيدروليكا أو الفيزيقا ليخوض فى تفاصيل علميه ·· وانما هو يكتفى بلفظة ذات دلالة مثل ·· برزخ ·· كلمة جميلة موحية لها ظلال وايحاءات ·· ثم يتركنا نفكر ·· ونصدق أو نكذب ·

أما القلم واللوح · فأنا نجد الله يقسم بالقلم ومايسطر به ·

« ن والقلم ومايسطرون »

(القلم ـ ١)

وأغلب الظن انه ليس قلمنا الذى نكتب به المقالات وتلهمنا فيه الشياطين ·· وانما المقصود هنا القلم الالهى الذى يكتب به الله أقدارنا فى اللوح المحفوظ ·· أو القلم الذى تسطر به الملائكة ، والله فى القرآن يكتب ويمحو ·

« يمحو الله مايشاء ويثبت وعنده أم الكتاب »

(الرعد ـ ٣٩)

وهو كلام محير يفهم من ظاهره أن الله مثلنا يكتب ويشطب ويراجع النفس ·· وهو غير صحيح ·· والتفسير الأصح أن الآية دلالة على سعة المغفرة والرحمة بدرجة تصل الى اللامعقول ·· الى محو القدر المقدور ، والله حر فعال لما يشاء لا يسأل عما يفعل ·· وبذلك أفسح الله الامل للتائبين وجعل التوبة تتخطى القدر المقدور نفسه ·· وهذا دليل على مطلق حرية الله ومنتهى رحمته ·

ونفهم هذه الحرية المطلقة مرة أخرى فيما يروى القرآن عن أيام الله فهو يقول فى احدى الآيات ·

« وان يوما عند ربك كألف سنه مما تعدون »

(الحج ـ ٤٧)

وفى آية أخرى يقول عن الملائكة ٠

« تعرج الملائكة والروح اليه فى يوم كان مقداره خمسين الف سنة »

(المعارج ـ ٤)

ومعنى هذا أن أيام الله هى كما يشاء الله ، فاذا شاء يكون اليوم بألف سنة واذا شاء يكون بخمسين ألف سنة ٠٠ فهو ليس خاضعا لزمنه مثلما نحن خاضعون وانما هو يخلق زمنه ٠٠ وهذا شرح فلسفى رفيع لمعنى الأبدية ٠٠ أو زمن من لازمن له ٠

كل هذه المعانى تبرق كالومض فى كلمات وتفوت القارىء اذا لم يجاهد فى سبيلها ٠٠ وقراءة القران فى نظرى جهاد ٠ ومن يقرأ القرآن بخفة ثم يرفض ما فيه ٠٠ يظلم نفسه ٠٠ ولا يظلم القرآن شيئا ٠

واعمق مافى القرآن هو ماورد عن الغيب ٠٠ ورب كلمه من حرفين تمر عليها وانت لاتبصرها وفيها سر وجودك كله ٠

ورب حقيقة تشيح بيدك وأنت تقرؤها فى استهزاء ٠٠ وتقول ٠٠ كيف ٠٠ هذه أساطير ٠ هذا كلام غير معقول ٠٠ لمجرد انك قرأت كتابا بالانجليزية واعتبرت نفسك مثقفا ٠

وأحسن رد عليك هو كلمة المسيح ٠

« لو أنك عملت بما تعلم ٠٠ لكشف لك الله علم مالاتعلم »

لو انك سلكت طريق طالب العلم الحقيقى المخلص الذى يقرأ كل العلم المتاح له ويفهم مافيه ويعمل بما فيه ٠٠ لاصبحت مستحقا ٠٠ ولعلمك الله علم مالا تعلم وفتح قلبك لما غمض عليك مما تراه كلاما بلا معنى ٠

وهو نفس طريق الصوفية المسلمين لادراك الغوامض بالكشف ٠٠ ولرؤية الغيب شهودا ٠٠ وهو قراءة القرآن والعمل به وتطبيق كل حرف فيه والنداء على الله باسمائه فى

حشوع وطلب العلم والتعلم ·· وانتظار الفتح ·
وهو نفس وعد القرآن ·

« والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا »
(العنكبوت ـ ٦٩)

ووعد الانجيل ·
« اطلبوا تجدوا دقوا على الباب يفتح لكم »
على أن يكون دق الباب بجماع القلب والهمة وانقطاع البال وخلوص النية ·· وليس مجرد شقشقة لسان بدعاء تقليدى · وحينئذ يتفضل عليك الله كما يتفضل على أحبابه وأوليـــائه فيفتح بصيرتك لترى الملائكة شهودا وترى الغيب حضـــورا وتسمع مالا أذن سمعت ·

« ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم »
(الانفال ـ ٢٣)

والله لا يكذب وعده ابدا ·· ولكن نحن الذين نكذب وعودنا
« ولقد عهدنا الى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما »
(طه ـ ١١٥)

ونأتى الى ذروة الغيب ·· وهى الساعة ·
والساعة هى ذروة الغيب المغيب التى لم يكشفها الله لأحد ولا حتى لأنبيائه ·

« يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل انما علمها عند ربى لا يجليها لوقتها الا هو ثقلت فى السماوات والارض لاتأتيكم الا بغتة يسألونك كأنك حفى عنهـا قل انما علمها عند الله »

(الاعراف ـ ١٨٧)

انه لعلم اختص الله به نفسه دون الخلق جميعـــا وانه لعلم رهيب كما سوف نرى ·



الســـاعــة

الساعة ذروة الغيب ·

وعلمها محجوب عن الكل ، اختص الله به نفســـه دون العالمين ·

ولكنه يحدثنا فى القرآن عن أشراط وعلامات لهذا اليوم ، ويصف لنا بعض تلك العلامات ·

« فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين يغشى النـــاس هذا عذاب أليم ربنا اكشف عنا العذاب انا مؤمنون أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون انا كاشفوا العذاب قليلا انكم عائدون يوم نبطش البطشة الكبرى انا منتقمون »

(الدخان ـ من ١٠ ـ ١٦)

ونجد اشارة الى هذا الدخان فى رؤيا يوحنا اللاهـــوتى الاصحاح الثامن « ففتح بئر الهاوية فصعد دخان من البئـــر كدخان أتون عظيم فأظلمت الشمس والجو من دخان البئر » · ويقول يوحنا فى رؤياه ان هذا الدخان لا يقتل الناس وانما

يعذبهم خمسة أشهر ، وفي تلك الايام سيطلب النـاس الموت ولا يجدونه ويرغبون أن يموتوا فيهرب الموت منهم » ٠

انها ظاهرة طبيعيه يقول عنها القرآن كمـــا يقول يوحنا اللاهوتي في الكتاب المقدس كلاما متوافقا ٠

اننا أمام دخان سوف يلف الارض ويحجب الشـمس ٠٠ ويتعذب به الناس عذابا شديدا لأجل محدود ٠٠ ثم يكشف الله عنهم ٠

ثم يخبرنا القرآن بعلامة أخرى في سورة النمل :

« واذا وقع القول عليهم أخرجنـــا لهم دابة من الارض تكلمهم »

(النمل – ٨٢)

ثم علامة ثالثه :

« اقتربت الساعة وانشق القمر »

(القمر – ١)

والله يقول لنبيه أن ينذر كل ظالم من هذا اليوم :

« وأنذرهم يوم الآزفة اذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع »

(غافر – ١٨)

ولاشك أن الكل سوف يؤمن حينما تظهر تلك العلامات ٠ حينما ينشق القمر وتخرج من الارض دابه تتكلم ، لا تبقى ريبة في قلب مرتاب ٠٠ ولكنه سوف يكون ايمانا فات أوانه لانه ايمـان المقهور الذي لا فضل له ولا اختيار ٠ ٠ انتهـازا للخير الاكيد الموعود ٠٠ كما يتسابق الانتهازيون في اعـلان الطاعة والولاء ويمشون في ركب كل نظام جديد حينما يرون ركائزه قد دعمت وثماره قد دنا قطافها ولهذا لن يقبـــل الله هذا الايمان ٠

« يوم يأتي بعض آيات ربك لاينفع نفسا ايمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في ايمانها خيرا »

(الانعام – ١٥٨)

انه دائما يتقبل من الذين يؤمنون بالغيب .. دون حاجه الى برهان ، ودون حاجة الى عيان .

بعيان القلب وليس بعيان النظر . فالغيب امتحان .

هل يرى القلب ما لا تراه العين فيصدق ويؤمن غيبا ؟!

ان فعل فقد دل بفعله على مرتبته العالية وانفتاح بصيرته واستحقاقه الخلاص .

وان لم يفعل فهذه شهادة بأنه لا يرى ولا يسمع ولا يعقل الا كما ترى الدواب وتسمع .. بالحواس الظاهرة . وقد دل بذلك على مكانه فى أسافل الدرجات .

ثم تأتي العلامة الاخيرة وهي يأجوج ومأجوج .

وهى قصة غامضة كلها رموز .. يتحدث فيها القرآن عن عالم رحالة يجوب أقطار الارض اسمه « ذو القرنين » وأثناء رحلته فى مكان ما بين السدين .

« وجد من دونهما قوما لا يكادون يفقهون قولا قالوا ياذا القرنين ان ياجوج ومأجوج مفسدون فى الارض فهل نجعل لك خرجا (أجرا) **على أن تجعل بيننا وبينهم سدا قال ما مكني فيه ربى خير فاعينونى بقوة اجعل بينكم وبينهم ردما آتونى زبر الحديد** (كتل الحديد الكبيرة) **حتى اذا ساوى بين الصدفين** (جانبى الجبل) **قال انفخوا حتى اذا جعله نارا قال آتونى أفرغ عليه قطرا** (نحاس مذاب) **فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا قال هذا رحمةمن ربى فاذا جاء وعد ربى جعله دكاءوكان وعد ربى حقا وتركنا بعضهم يومئذ يموج فى بعض ونفخ فى الصور فجمعناهم جمعا »**

(الكهف من ٩٣ – ٩٩)

ما هنا قصة غامضه تماما يتخبط فيها المفسرون ٠

البعض يقول أن يأجوج ومأجوج هم نسل يافث بن نوح ٠٠ وانهم هم الجنس الاصفر ٠٠ الصين وما فى دربها ٠ عاشوا فى آجال وأحقاب من الجهاله والتخلف ، والشعوب المتقدمة من حولهم تبنى أسوارا من العلم والتصنيع ٠٠ وذو القرنين وصهر الحديد والنحاس كلها رموز للعلم والصناعه التى كانت دائما تحجزهم وراء حاجز من الجهل والتخلف وتقيم حولهم سدا ٠

حتى اذا جاء اليوم الموعود ونفضوا عن أنفسهم هذا التخلف وأخذوا بأسباب الصناعه ، وصنعوا الحديد والصلب والقنبلة الهيدروجينيه ٠٠ وتكاثروا الى آلاف الملايين ٠٠ وهدموا السد (ولم يكن ذلك السد الا رمز الجهل الذى يعزلهم عن العالم) ساحوا فى الارض ونزلوا من كل حدب ينسلون ، وكانت الحرب التى تضع ختام الحياة ٠

وأذكر الآن حديثا بين الماريشال مونتجمرى وماوتسى تونج فى لقاء بينهما منذ أكثر من خمسة عشر عاما ألقى فيه الماريشال العجوز هذا السؤال على زعيم الصين ٠٠ عن المخاوف التى تتردد فى الاذهان من غزو الصين للعالم ٠

وكانت اجابة الزعيم الصينى دقيقه جدا ومازلت أذكرها بحذافيرها ٠٠ فقد قال :

ـ كل ما أعلمه أن فى عهدى لن يحدث هذا ٠٠ أما بعدى فلا أدرى ٠

وهى اجابة دقيقة وصادقة ٠٠ فلا الرجل ولا نظامه يحملان عداء لاحد ٠٠ وانما يقدمان العون والصداقة لكل الشعوب ٠

ولكن بعد ماوتسى تونج ٠٠ وبعد أن تصبح السبعمائة مليون ، ألف مليون ٠٠ لا يدرى الا الله ٠٠ ماذا يكون من أمر الصين ٠

ولا يعنى هذا الكلام ان التفسير صادق ٠٠ فالامر كله رجم

بالغيب ، ولا يعلم الغيب الا الله ‥ وكل ماذكر فى تفسير قصة يأجوج ومأجوج هو تخمين فى تخمين ‥ وعلى رأى المتصوفين ‥ هذه امور تفسيرها حدوثها ·

ومع هذا فانا لو فتحنا الاصحاح العشرين من سفر الرؤيا وقرأنا ما يقوله يوحنا اللاهوتى عن يأجوج ومأجوج فانا نراه يقول نفس المعانى ويشير نفس الاشارات ·

« متى تمت الالف سنة يحل الشيطان من سجنه ويخرج ليضل الامم الذين فى أربع زوايا الارض ‥ جوج ومأجوج ، ليجمعهم للحرب وعددهم مثل رمل البحر »

ما هذه الامة التى عددها كرمل البحر ‥ والتى سوف تحتشد لتحارب العالم ‥ عندما تتم السنه الالف ·

ولعله يقصد الالف الثانية ميلادية ‥ وباق عليها الآن أقل من ثلاثين سنة ·

هى أمور تثير الخيال ‥ وهى نبوءات تتداعى الواحدة لتؤيد الاخرى ولا نملك الا الصمت · فمثل هذه التأويلات لا يحق لنا أن نؤولها ‥ والوحى يقول لنا عن القرآن :

« وما يعلم تأويله الا الله »

(آل عمران ـ ٧)

هو وحده الذى يملك مفتاح مافيه من رموز ‥ وهو وحده الذى عنده علم الساعة ·

والاجتهاد مباح فى أمور الدنيا لكن القطع فى أمر غيبى أكبر خطأ يتورط فيه قارىء للقرآن فضلا عن أنه ليس فى مقدورنا ·

ويروى لنا القرآن أن الساعة ستأتى حينما تبلغ الارض ذروة حضارتها ويبلغ الانسان غاية تقدمه ، فتأخذ الارض زخرفها وزينتها ‥ ويظن الانسان أنه تحكم فى كل شىء وأصبح قادرا على كل شىء ‥ فهو يتحكم فى الامطار ، ويزرع الصحارى ويداوى ما استعصى من أمراض وينقل القلوب

والعيون من موتى الى أحياء ، ويسافر بين الكواكب ويفجـــر الذرة وينقل الجبال ٠٠ ان الله يتوعدنا منذرا :

« حتى اذا أخذت الارض زخرفها وازينت وظن أهلهـا أنهم قادرون عليها آتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلنـاها حصيدا كأن لم تغن بالامس »

(يونس - ٢٤)

وفى الآية لطف وخفاء ٠٠ فالله يقول ان الساعة تأتى ليـلا او نهارا ، ولا تفســير لذلك الا أن تكـون الارض كروية دوارة نصفها ليل ونصفها نهار ، فاذا جاءت الســـاعة وهى تأتى فى لحظة :

« وما أمر الساعة الا كلمح البصر أو هو اقرب »

(النحل - ٧٧)

فان نصف سكانها يكونون فى ليل والنصـــف الآخر فى نهار ٠٠ فلا يصدق لو قال انها تأتى نهارا ولا يصدق لو قال انها تأتى ليلا والله لا يكذب وعده أبدا ولهذا يقول فى لطف وخفاء أنها تأتى ليلا أو نهارا ٠

ومما يدل على أهمية هذه الاشارة تكرارها فى آية أخرى عن الساعة :

« قل أرأيتم ان اتاكم عذابه بياتا أو نهارا ماذا يستعجل منه المجرمون »

(يونس - ٥٠)

مرة أخرى يقول أن ذلك العذاب المفاجىء سوف يأتى بياتا أو نهارا ٠٠ وهى اشارة لنا لنتفكر ٠

وهكذا يصل بنا القرآن الى العـــلامة الاخيرة من علامات الساعة وهى نفخة الصور وقيام القيامة ٠

والمشاهد التى يرويها القرآن للقيامة رهيبة يتثلج لها الدم

فى العروق ‥ فالشمس تخسف والقمر يكسف والجبال تنسف والنجوم تنكدر والبحار تنفجر والارض تتزلزل وكل الاحياء فى الارض والسماوات تصعق الا من يشاء الله أن يحفظه ليشهد هذا اليوم ٠

يحدث هذا مع نفخة الصور الاولى ٠

ومع النفخة الثانية يبعث الكل ويبدأ الحساب ٠

ونجد فى رؤيا يوحنا اللاهوتى صورة مشابهة للقيامة ٠

ويقول الاصحاح السادس :

« ونظرت لما فتح الختم السادس واذا زلزلة عظيمة حدثت والشمس صارت سوداء كمسح من شعر والقمر صار كالدم ونجوم السماء سقطت الى الارض كما تطرح شجرة التين سقاطها اذا هزتها ريح عظيمة والسماء انفلقت كدرج ملتف وكل جبل وجزيرة تزحزحا عن موضعهما » ٠

وفى سورة الانفطار يصف القرآن القيامة :

« اذا السماء انفطرت (أى انشقت) واذا الكواكب انتثرت واذا البحار فجرت واذا القبور بعثرت »

(الانفطار ـ ١ ـ ٤)

وفى سورة التكوير :

« اذا الشمس كورت واذا النجوم انكدرت واذا الجبال سيرت واذا العشار عطلت واذا الوحوش حشرت واذا البحار سجرت (أى فجرت نارا) »

(التكوير ـ ١ ـ ٦)

وفى كل الروايات التى يرويها القرآن عن القيامة يذكر لنا فيها أن الله ينزل هو وملائكته ٠

وتبدو لى القيامة دائما أشبه بصورة مكبرة لما حدث لحظة طلب موسى أن يرى ربه ‥ ويروى القرآن ما حدث اذ ذاك تفصيلا فى سورة الاعراف :

« قال ربي أرني أنظر اليك قال لن تراني ولكن أنظر الى الجبل فان استقر مكانه فسوف تراني فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا »

(الاعراف ـ ١٤٣)

وهذا ما نراه يحدث مكبرا فى كل صور القيامة ٠

« ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفا فيذرها قاعا صفصفا »

(طه ـ ١٠٥ ـ ١٠٦)

« هل ينظرون الا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام والملائكة وقضى الأمر »

(البقرة ـ ٢١٠)

« وانشقت السماء فهي يومئذ واهية والملك على أرجائها »

(الحاقة ـ ١٦ ، ١٧)

« اذا دكت الارض دكا دكا وجاء ربك والملك صفا صفا »

(الفجر ـ ٢١ ـ ٢٢)

« وفتحت السماء فكانت أبوابا وسيرت الجبال فكانت سرابا »

(النبا ـ ١٩ ، ٢٠)

« ونفخ فى الصور فصعق من فى السماوات ومن فى الارض الا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون وأشرقت الارض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون »

(الزمر ـ ٦٨ ، ٦٩)

هناك دائما حضرة ربانية وتجل مثل الذى صعق موسى

ودك الجبل ·· ولكن هذه المرة يصعق الكل ويدك جميع الجبال ·

ولهذا نرى القرآن يتحدث فى مكان آخر عن الحجـارة : « **وان منها لما يهبط من خشية الله** » ·· لاشيء يتحمل الحضرة الربانية حتى الحجر يهبط ·· ويبدو أن القيامة ماهى الا التجلى الربانى الذى لا تحتمله جميع صور المادة فتذوب ·· فلاشيء يرتفع أمام وجه الله ·· الجبال تذوب خشوعا وتحنى هاماتها ثم تتبخر وتصبح سرابا ·· كل صنوف الحياة تصعق ·· لا صوت ·· لا حياة ·· لقد رفع الله الحجاب عن سـبحات وجهه · « وأشرقت الارض بنور ربها » ·

ويقول يوحنا اللاهوتى عن هذا النور فى الاصحاح الواحـد والعشرين من رؤياه :

« والمدينة لا تحتاج الى الشمس ولا الى القمر ليضيئا فيها لأن مجد الله قد أنارها »

وهو النور الذى لم تحتمله المخلوقات أول الامر فصعقت ثم بعثها ربها فى نشأة أخرى ليكون الحساب ·

« **وننشئكم فيما لا تعلمون** »

(الواقعة ـ ٦١)

ومعنى هذا أن النشأة الثانية سوف تكون على صورة مغايرة لا نعلمها ·· وبتحدث القرآن دائما عن لقاء بين كل انسان وبين ربه ·

« **وكلهم آتيه يوم القيامة فردا** »

(مريم ـ ١٩٥)

« **ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة** »

(الانعام ـ ٩٤)

« **يا أيها الانسان انك كادح الى ربك كدحا فملاقيه** »

(الانشقاق ـ ٦)

« ان الذين يشترون بعهد الله وايمانهم ثمنا قليلا أولئك لا خلاق (لانصيب) لهم فى الآخـــرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر اليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب اليم »

(آل عمران ـ ٧٧)

« ذرني ومن خلقت وحيدا »

(المدثر ـ ١١)

« واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه وبشر المؤمنين »

(البقرة ـ ٢٢٣)

« فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه احدا »

(الكهف ـ ١١٠)

وهو لقاء لا يمكن أن يتم والانسان في صورته البشرية ‥ فاذا حدث فهي قيامة تصعق لها جميع المخلوقات وتندك الجبال والبحار و « **تبدل الارض غير الارض والسماوات** »

وفي ذلك يقول يوحنا اللاهوتى : « ثم رأيت سماء جديدة وأرضا جديدة لأن السماء الاولى والارض الاولى مضتا والبحر لا يوجد فيما بعد »

لأننا نقوم كلنا للقيوم ٠

ومن هنا كان اسمها قيامة ٠

« **لمن الملك اليوم لله الواحد القهار** »

(غافر ـ ١٦)

انتهت الخلافة الوهمية التى كان كل منا يتصرف فيها كأنه اله وملك له ملك ورعية ، وحاكم يحكم فى بيته ومملكته ‥ حتى ظن بنفسه الظنون وتخيل أنه شىء ٠

هنا يعود الملك للمالك الحقيقى ٠

لقد حضر صاحب الشأن ، الخالق الذى خلق كل شىء ‥ واليه يعود كل شىء ٠

القيامة باختصار هى تجلى الله بذاته ·
ولا شك أن الله موجود دائما فى كل مكان وفى كل آن ·
ولكن ·· فرق بين وجوده وبين تجليه بذاته ·

وبالتجلى بالذات يحدث القهر التام لكل شىء والفناء للصور المادية بأسرها فلا صورة بالمادة يمكن أن تقوم أمام ذات الله فى توحده وكماله وتجليه ·

هذا حدسى فى مسألة القيامة ·

أما تفسير القيامة بنظريات علمية عن اصطدام القمر بالارض أو فناء الشمس ·· أو تقلص الكون واحتراقه أو تمدده فى الفضاء ·· أو اصطدام المادة بالمادة المضادة ·

فكل هذا فضول لا مبرر له ··

فالانسان يموت باسباب وبدون أسباب ·

وكما يموت الانسان الفرد تموت الامة وتموت الحضارة وتموت اجناس الحيوان بأسرها · وتموت النجوم فى أفلاكها ·

لا حاجة الى كدح الذهن فى أسباب للنهاية والتناهى ·
انه الناموس الذى اقامه الصانع الذى صنع كل شىء ·

واذا قال لنا الصانع انه سيقيم قيامه ·· فاننا لسنا بحاجة الى اصطناع نظريات ·· وأسباب ·· ومبررات ·· والمبررات لمن · انه الآمر الذى يأمر ولا سواه ·

ونفخة الصور هى رمز للأمر ·

ولهذا يأتى الامر فى القرآن باكثر من اسم ·

مرة ·· **نفخ فى الصور**
ومرة ·· **نقر فى الناقور**
ومرة ·· **هى الزجرة**
وأخرى ·· **هى الزلزلة**
وأخرى ·· **هى الدمدمة**
وكلها رموز للامر ·· ولكلمة « **كن فيكون** »

لقد جاء الامر .. وهذا كل شيء .

انه الناموس .

أن تكون لكل شيء قيامته .

أن تكون هناك قيامة صغرى لكل منا بالموت .

وقيامة كبرى يفنى فيها الزمن فى الابد ويعـــود الكل الى أصله ومنبعه .

لا محل لشك أو ريبة .

وانما هناك كل الدواعي والشواهد لان يسلم الانســـان بالقلب بلا مجادلة وبلا مساءلة .

البعث

يخاطب الله نبيه فى القرآن فيقول :

« انك ميت وانهم ميتون »

(الزمر – ٣٠)

لا يقول انك ستموت ٠٠ بل يقول : « انك ميت » ٠٠ انك تحيا بى وتسمع بى وترى بى وتنطق بى ٠٠ وهذا شأن كل بشرى ، يحيا بالله ، ويرى بالله ، ويسمع بالله ٠٠ ولكنه فى ذاته ميت ٠٠ لا حياة له بذاته ، وانما الكل معتمد فى وجوده على الواحد الذى خلق ٠٠ المستغنى بوحدانيته عن كل شىء ٠

وفى كلمة « انك ميت » عنف يوقظ الاحساس ٠٠ أنها تضعك أمام واقع مفزع وأمام حالة فى الحاضر لا حالة متوقعة فى المستقبل ٠

وان الواحد منا ليحمل جثته على كتفيه بالفعل ، وفى كل قطرة عرق وقطرة لعاب يطرح بضعة ماتت من جسده ٠٠ كما تطرح الشجرة أوراقها الميتة كل يوم ٠

ان الموت حاضر فى كل لحظة ومؤجل فى كل لحظة ٠

ولا حى بحق الا الله ٠

انما نعيش نحن على استعارة وقرض وسلفة نستعيرها منه ، على مجرد منحه بأجل ٠

ويقول الله لمحمد فى حديث قدسى :

« عش ما شـــئت فانك ميت ٠٠ أحبب من أحببت فانك مفارقه ٠٠ امتلك ما امتلكت فانه للتراب ٠٠ اعمل ما عملت فان عملك مصاحبك »

عبثا نحب ٠٠ فاننا نحب لنفارق من أحببنا ، فهو حب الى حسرة وخيبة ، الا اذا اخترنا أن نحب الحى البـــاقى الذى لا يموت ٠

وعبثا نمتلك فاننا سنفارق ما نملك ٠

لن يصاحبنا الا عملنا ٠

ويتكرر النذير بالموت والزوال والفناء فى القرآن عشرات المرات ليلفت النظر الى الحقيقة الظاهرة المؤكدة بامتداد الحياة الى أجل محدود تهلك بعده حتما ٠

وهى حقيقة ظاهرة ومؤكدة ٠٠ ومع ذلك لا أحـد يعيرها اهتماما ، والكل يعيش ويتصرف كما لو أنه سوف يخلد على الارض ٠٠ ولهذا يبخل البخيل ويجبن الجبان ويكذب الكذاب ويسرق السارق ويقتل القاتل ويطغى الطاغية ويستبد المستبد لانه يشعر أنه فى أمان وأنه مخلد ٠

ولذلك قطع القرآن بجهل الاغلبية وبأن الاغلبية على الباطل وحذر من اتباع الاغلبية فى مسأله العقيدة ٠٠ لأن الاغلبيـــه تعرف كيف تأكل وكيف تشرب ولكنها لا تعرف كيف تفـكر لتصل الى حقيقة ٠٠ وقال :

« وما يتبع أكثرهم الا ظنا »

(يونس - ٣٦)

« فأبى أكثر الناس الا كفورا »

(الاسراء - ٨٩)

« وما وجدنا لأكثرهم من عهـــد وان وجدنا أكثرهم لفاسقين »

(الأعراف - ١٠٢)

« وان تطع أكثر من فى الارض يضلوك عن ســبيل الله ان يتبعون الا الظن »

(الأنعام - ١١٦)

« أم تحسب أن أكثرهم يســمعون أو يعقلون أن هم الا كالانعام بل هم أضل سبيلا »

(الفرقان ـ ٤٤)

« لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون »

(يس - ٧)

« ومايتبع أكثرهم الا ظنا ان الظن لايغنى من الحق شيئا »

(يونس ـ ٣٦)

« بل جاءهم بالحق ، وأكثرهم للحق كارهون »

(المؤمنون ـ ٧٠)

ولو أن محمدا قد بدأ الدعوة الى الاسلام باستفتاء ٠٠ أيهما تعبدون : الله ٠٠ أم الاصنام ؟!

لأجمع أهل مكة الا القليل على عبادة الاصنام ٠

فادراك الحقيقة سوف يكون دائما من مواهب الصفوة ٠

أما الاحتكام فى مسائل المعاش وهموم البطن فيمكن الرجوع فيه الى رأى الاغلبية فهذه شئون يعرفونها ويتكالبون عليها بالغريزة ٠

وقديما أجمعت الاغلبية على اعدام ســـقراط وحرق برونو وسجن غاليليو حينما واتتها الفرصة لتقول كلمتها فى مسائل الفلسفة والعقيدة والعلم ٠

ورجل العلم قد يفنى عمره فى دراسة دودة أو تشريح نملة •• وهو أمر غير مفهوم بالنسبة لعقل غوغائى •

والعقل الغوغائى لا يفهم أن مثل تلك الدراسة قد تفضى الى سلسلة من البحوث تؤدى الى اكتشاف لقاح واق من شـلل الاطفال أو الجدرى أو الانفلونزا •• وأنهـا قد تؤدى الى خـير يعم الجميع •

وأكثر الناس لا ينظرون الا للنفع العاجل القريب الملموس فهم عبيد لعداتهم وشهواتهم •• وليس هذا احتقارا للاغلبية وانما فهم لحدودها ودورها •• فالذى يأخذ رأى الاغلبية فى معضلات المغنطيسية والكهرباء ، يظلم الاغلبية ويظلم نفسـه ويظلم المغنطيسبة والكهرباء •

وفى مشكلات الفكر والعلم تكون القيادة صـدقا وعـدلا للصفوة •• على أن تكون المشورة بين أهل العلم هى القاعـدة وليس الاستبداد بالرأى •

« وشاورهم فى الامر »

(آل عمران – ١٥٩)

« وأمرهم شورى بينهم »

(الشورى – ٣٨)

« وما انت عليهم بجبار »

(ق – ٤٥)

« فذكر انما انت مذكر لست عليهم بمسيطر »

(الغاشية – ٢١ – ٢٢)

« ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله »

(آل عمران – ٦٤)

فالقرآن ضد عبادة الفرد وضد الاستبداد بالرأى حتى ولو جاء الاستبداد من نبى •• وانما الاخوة والتعاون والمشـورة هى القاعدة •

« انما المؤمنون أخوة »

(الحجرات – ١٠)

« وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان »

(المائدة – ٢)

« واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل »

(النساء – ٥٨)

ويؤكد القرآن أن الناس طبقات ·· ولكنها ليست الطبقية التى تمنحها رءوس الاموال والعقارات ·· انها طبقيه من نوع آخر ·

الناس طبقات فى العلم والمعرفه والتقوى ·· والارواح لا تتساوى أبدا وان تساوت الابدان فى حق الكفاية والعدل ·

«يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات»

(المجادلة – ١١)

« تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض »

(البقرة – ٢٥٣)

« هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون »

(الزمر – ٩)

« ان أكرمكم عند الله أتقاكم »

(الحجرات – ١٣)

ورغم هذه الاشارات الخاطفة فالقرآن لم يضع دستورا سياسيا محددا وانما ترك باب الاجتهاد مفتوحا لأن النظم السياسية زمنية متغيرة ·· بوضع كل نظام ليلائم عصره ويعبر عنه ، فاذا تغير العصرلزم الامر أن يتغير النظام تبعا له·

والقرآن كتاب أزلى ·· يضم بين دفتيه العلوم الأزلية

والحقائق الباقية ، ولا يحفل بالامور الوقتية المتغيرة ·· ويتركها لاصحابها يجتهدون فيها ·

والقرآن كتاب دين وأخلاق وليس كتابا فى السياسه ·· ومع ذلك فهو يقدم توصيات عامة هى سمات الحكم الأمثل ·· (أن يراعى حرية الفرد ، وأن يدع مقدرات الفكر والثقافة للصفوة تقودها ولا يستفتى الاغلبيه الا فى أمور معاشها الحياتية المباشرة ، وأن يكون طابع الحكم المشورة لا الطغيان ، والعدل والكفاية لا الظلم والاستغلال) أما أى منهج ·· وأى تفاصيل ·· فهو أمر مفتوح للاجتهاد والقرآن لا يتدخل فيه ·

والقرآن كتاب موجه الى قلب الفرد ليخلص الفرد ويهديه ·· فيكون خلاص المجتمع وهدايته نتيجة مترتبه على خلاص أفراده ·· وليس العكس ·

أى انه لايصلح المجتمع ليصل بذلك الى صلاح أفراده ·· بل هو يهدى الفرد ليهدى بذلك العالمين ·

فهو لا يدق على باب السياسة ليغير مجتمعا ·

وانما يدق على باب القلب ليهدى انسانا ·

ذلك الانسان الذى قال عنه :

« من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا »

(المائدة - ٣٢)

ان قتل انسان واحد ظلما وعدوانا هو انهدام للناموس وقتل لكل الانسانية ·

الى هذه الدرجة تبلغ قيمة الفرد والنفس الواحدة فى شريعة القرآن ·

ان الفرد وجود مطلق فى ذاته ·· له كرامته وقداسته وحريته · واحترام هذه الحرية هو أول شروط العبادة الحقة لله ·

والفرد يموت جسـديا في الدنيا ولكن روحيـا له مطلق الوجود والحياة والخلود ٠٠ فلا يصح اعتباره مسمارا فى آلة المجتمع ، يخلع ويستبدل بغيره ويضحى به ظلما لأى هـدف وتحت أى شعار ٠٠ فالشعارات سوف تتغير والنظم تتبدل ٠٠ وتبقى روح الانسان أخلد من جميع النظم ، ولهـذا وجب احترامها لذاتها وفى ذاتها ٠

وبهذا التقديس الرائع للانسان الفرد وحريته انفـردت جميع الديانات واختلفت عن العـقائد المـاديه التى لا ترى للانسان الفرد وجودا حقيقيا وانمـا هو ابن وقته وظروفه ومجتمعه ولا يبقى منه شيء ٠

والنفس الانسانية عند الماديين هي مجموعة ردود أفعـال ومجموعة مواقف ظرفية ومجموعه ملابسـات وهى خـادمة للجسد ومتوقفة عليه فهى تستشعر الجـوع لتطعم الجسـد وتستشعر الحافز الجنسى لتدفع الجسد الى التكاثر ٠

فاذا مات الجسد ماتت بموته ٠

أما الروح فهى عندهم خرافة صوفيه دينية لا معنى لها ٠

ولا توجد فى الفلسفه الماديه حياة دنيـويه تنتهى بالموت وحياة روحية متجاوزة لها ومتعالية عليها لا ينالهـا فنـاء ولا عدم ٠٠ وانما كل ما هناك هو هذه الحياة الدنيويه وليس قبلها ولا بعدها شيء وليس أمامها ولا وراءها شيء ٠٠ وما نحن الا أجسادنا ٠

ومن هنا صح عندهم اعتبار الفرد مسمارا فى المجتمـع يمكن التضحية به واستبداله لصالح هذا المجتمع ٠٠ فالمجتمع هو الحقيقة الباقية والفرد هو الحقيقة الفانية وكل قيمه هـذا الفرد فيما ينجزه للمجتمع ٠

والمسألة تستحق عندى وقفة طويله ٠

هل حقيقة ما نحن الا أجسادنا ؟

وبالتالى ما الدنيا كلها الا مادة ؟

فى البدء كانت المادة ثم تطورت ثم أصبحت انســانا ٠٠
وغدا يموت الانسان ويسدل الستار الختامى على المسرحية ٠٠
هكذا بكل بساطة

هم يقولون هذه حقائق موضوعيه ، فلنكن موضوعيين ٠٠
فلا وجود الا لما هو موضوعى ، والجسد شيء موضوعى جـــدا
قابل للدرس والفحص والتشريح ٠

والقائل هنا يلجأ الى الحل السهل ويلجأ الى التبسيط ولو
كان تبسيطا مخلا ٠٠ ولا يكلف نفسه حتى ولو نظــرة تحت
الجلد ٠٠ حتى ولو نظرة الى داخل نفسه ٠

واذا قلت له أن الجسد ليس الانسان وأن داخل الجســـد
نفسا هى لصاحبها ليست شيئا موضوعيا وانما هى حقيقــه
ذاتية ٠٠ وأنه بالنسبة للانسان نجد دائما ذاتا فى مقـــابل
موضوع ٠

قال لك وما الذات وما النفس ٠٠ انها مجرد حوافز الجوع
والجنس والخوف ومجمـــوعة الاستشعارات التى يدرك بهـــا
الجسد ما يحتاجه ، فهى ملحقاته الثانويه ٠٠ وهى فى النهاية
يمكن أن تكون موضوعا هى الأخرى ٠

موضوع بالنسبة لمن ؟

موضوع بالنسبة للآخرين ؟ !! وكيف ؟ ٠٠ والآخـــرون
لا يرونها ولا يدركون وجودها الا استنباطا من ظواهر السلوك
وهى ظواهر أغلبها كاذبه ، فكل منا يمثل على الناس بل ويمثل
على نفسه وسلوكه الظاهر قلما يدل عليه ٠

أم هى موضوع بالنسبة لصاحبها ؟

وكل منا لو اتخذ نفسه موضوعا فانها تبرد وتســـتحيل
تحت مشرط التحليل الى جثة وتستخفى عليه وتهرب من يديه
لأنها لا يمكن أن تكون موضوعا ولا أن توضع تحت مجهـــر
مثل ورقة شجرة ٠ لأن جوهرها بالدرجة الاولى فى ذاتيتها ،
وحقيقتها انها الوجه الآخر من الصـــورة فهى الذات فى مقابل

الجسد الذى هو موضوع .. وكلا القطبين الذات والموضوع هما وجها الحقيقة .. فاذا عرفنا المادة بأنها كل ما هو موضوعي فلابد من الاعتراف بأن هناك فى الوجود شيئا آخر غير المادة هو الوجه الآخر من الحقيقة الذى هو الذات .

فاذا عدنا الى التعريف المادى للذات والنفس بأنها مجـــرد حوافز الجوع والجنس والخوف والاستشعارات التى يدرك بها الجسد أنه ظمآن أو جوعان أو مشتاق جنسيا فاننا أمـــام تفسير متهافت ، فما هكذا حقيقة النفس ولا حقيقة الانسان .

ان الانسان ليضحى بلقمته وبيته وفراشـــه الدافىء فى سبيل أهداف ومثل وغايات شديدة التجريد كالعدل والحق والحرية ، فأين حوافز الجوع والجنس هنا .. حتى العامل البروليتارى فى فيتنام يموت على مدفعه فى سبيل غد لم يأت بعد .. وهذا اثبات قاطع بأن النفس والذات حقيقه متجاوزة وعالية على الجسد وليست مجرد احتياجات الجسد الحســية معكوسة فى مرآة داخلية .. تلك الارادة الهائلة التى تدوس على الجسد وتضحى به هى حقيقة متجاوزة عالية بطبيعتها وآمرة ومهيمنة على الجسد وليست للجسد تبعا وذيلا .

واذا كنت أنا الجسد فكيف أتحكم فى الجسد وأخضعه .

واذا كنت أنا الجوع فكيف أتحكم فى الجوع .

ان مجرد الهيمنة الداخلية على جميع عناصر الجسد ومفردات الغرائز هي الكاشفة عن ذلك العنصر المتعالى والمفارق الذى تتألف منه الذات الانسانية .

عن طريق النفس أتحكم فى الجسد
وعن طريق العقل أتحكم فى النفس
وعن طريق البصيرة أضع للعقل حدوده .

هذا التفاضل بين وجود ووجود يعلو عليه ويحكمه هـــو الاثبات الواقعى الذى يقودنا الى الروح كحقيقة عالية متجاوزة للجسد وحاكمة عليه وليست ذيلا وتابعا تموت بموته .

والذى يقول بأن الانسان مجموعه وظائف فسيولوجيه ماديه لا غير .. عليه أن يفسر لنا أين يذهب ذلك الانسان فى لحظة النوم .

ان جميع الوظائف الفسيولوجيه قائمه ومستمرة أثنـــاء النوم وجميع الافعال المنعكسة تحدث بانتظام فاذا شككت اليد بدبوس انقبضت بعيدا عنك .. والقلب بالمثل يدق والتنفس يتردد والغدد تفرز والاحشاء تتلوى والاعضاء التناسلية تهتاج .. ومع ذلك فنحن أمام رجل نائم أشبه بشجرة .. مجـــرد شجرة أو حيوان . أو حياة بدائيه .. لا تختلف عن الحيــاة الحشرية .. فأين الانسان .

ان النوم ثم اليقظة وهو النموذج المصغر للموت ثم البعث يكشف لنا مرة اخـــرى عن ذلك العنصر المتعالى الذى يخـلق بحضوره فى تلك الجثة النائمة فجاة وبلا مقدمات هتلر ونيرون وكاليجولا فاذا بذلك الممدد كالثور الهامد يصحو ليقتل ويغزو ويسحق ويمحق .. وأن الفرق لهائل أكبر من أن يفسر بتغير مادى يتم فى لحظات .

وفى ذلك يقول القرآن أن الارواح تبارح أجسادها عنـــد النوم كما يحدث فى الموت ثم يعيدها الله فى اليقظة .

« الله يتوفى الانفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الاخرى الى اجل مسمى »

(الزمر - ٤٢)

ويمتلىء القرآن بعديد من الآيات القاطعة بالقيــامة والبعث بعد الموت .

« والله انبتكم من الارض نباتا ثم يعيدكم فيها ويخرجكم اخراجا »

(نوح - ١٧ - ١٨)

« انا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم وكل شيء احصيناه في امام مبين »

(يس – ١٢)

« ونفخ في الصور فاذا هم من الاجداث الى ربهم ينسلون »

(يس – ٥١)

« قالوا ياويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون »

(يس – ٥٢)

« ان كانت الا صيحة واحدة فاذا هم جميع لدينا محضرون »

(يس – ٥٣)

« أفحسبتم انما خلقناكم عبثا وانكم الينا لاترجعون »

(المؤمنون – ١١٥)

« خشعا أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر »

(القمر – ٧)

« ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا وعرضوا على ربك صفا لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة بل زعمتم ألن نجعل لكم موعدا »

(الكهف – ٤٧ ، ٤٨)

« فوربك لنحشرنهم والشياطين ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا »

(مريم – ٦٨)

ان الروح حقيقة .. وهى متجاوزة للجسد عاليه عليه

لا يجرى عليها حدث الفنـــاء ‥ فهى باقية خالدة لهـــا يوم وميقات وآخرة تلقى فيها خالقها ·

ولكن التبسيط المخل والبحث عن حل ســـهل خلاصا من مشكلة بلا جواب هو الذى دفع الماديين الى هـــذا التصـــوير المتهافت للانسان بأنه جسد ومجموعه ردود أفعـــال وأنه من التراب يأتى والى التراب ينتهى ‥ ولا أفهم كيف طاوعتهم نفوسهم على تصديق هذا الكلام فى عالم رائع محكم تشهد كل ذرة فيه بالنظام والجمال وتتسلسل فيه الأسباب الى غاياتهـا ويخدم فيه الموت الحياة ويفتدى الانسان بدمه كل لحظة أشـد المثل والأهداف تجريدا ‥ ولا يذهب أى شىء هباء ·

فكيف يذهب الانســـان وهـو أشرف المخلوقات هباء ‥ ويتبدد سدى ·

« أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وانكم الينا لا ترجعون »
(المؤمنون ـ ١١٥)

« أيحسب الانسان أن يترك سدى »
(القيامة ـ ٣٦)

ويأتى احد الكفار الى محمد بقطعة من عظام ميت ويفركها بين يديه فتصير ترابا ‥ ويقول للنبى :

ـ ايبعث ربك هذه العظام الرميم بعد أن صـــارت ترابا ؟ فينزل الوحى على محمد بالآية القرآنية :

« وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم ، قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم »

(يس ـ ٧٨ ـ ٧٩)

يردعليه القرآن بالحجةالبالغة المسكته ‥ انت تسأل كيف يخلق الله منالرميم وقد نسيتأن الله خلقكأنت منلاشىء · من

قطرة ماء .. وان القادر الذى خلقك مرة يستطيع ان يخلقك مرة آخرى .

« أو ليس الذى خلق السماوات والارض بقادر على أن يخلق مثلهم ، بلى وهو الخلاق العليم »

(يس - ٨١)

« أفعيينا بالخلق الاول بل هم فى لبس من خلق جديد »
(ق - ١٥)

وهل أعيانا أن نخلقكم مرة حتي يلتبس عليكم كيف نخلقكم من جديد « **كما بدأنا أول خلق نعيده** » هكذا يقدم القرآن قصة البعث في بساطة شديدة وفى خمس كلمات .

ثم يروى لنا فى آية مثيرة كيف يكون قيام الموتي بعد رقدتهم الطويلة فى القبور .

« ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة »
(الروم - ٥٥)

ان الدهور التى لبثها الموتى فى قبورهم يخيل لهم لحظة البعث انها كانت مجرد ساعة زمان وكأنهم كانوا فى غفوة أو نومة عصارى بعد أكلة ثقيلة .

ان الروح والبعث حقائق مقررة .. ولكن قارىء اليوم يحب أن يقتنع فى هذه المسائل بالبرهان الفلسفى .

ولعشاق الفلسفة نقدم دليلا آخر على وجود الروح من الخاصية التى تتميز بها الحركة .

فالحركة لا يمكن رصدها الا من خارجها .

لا يمكن أن تدرك الحركة وأنت تتحرك معها فى نفس الفلك .. وانما لابد لك من عتبة خارجية تقف عليها لترصدها .. ولهذا تأتى عليك لحظة وأنت فى أسانسير متحرك

لا نستطيع أن تعرف هل هو واقف أم متحرك ، لأنك أصبحت قطعة واحدة معه في حركته ·· لا تستطيع ادراك هذه الحركه الا اذا نظرت من باب الاسانسير الى الرصيف الثابت فى الخارج ·

ونفس الحالة في قطار يسير بسرعة على القضبان ·· لا تدرك حركة مثل هذا القطار وأنت فيه الا لحظه شروعه في الوقوف أو لحظة اطلالك من النافذة على الرصيف الثابت فى الخارج ·

وبالمثل لا يمكنك رصد الشمس وأنت فوقها ولكن يمكنك رصدها من القمر أو الأرض ·· كما لا يمكنك رصد الارض وأنت تسكن عليها وانما نستطيع رصدها من القمر ·

لا تستطيع أن تحيط بحالة الا اذا خرجت خارجها ·

وعملية الادراك هى اثبات اكيد بأن هناك شيئين فى كل لحظة ·· الشيء المدرك ·· والنفس المدركة خارجه ·

ولهذا ما كنا نستطيع ادراك مرور الزمن لولا أن الجزء المدرك فينا يقف على عتبة منفصلة وخارجة عن هذا المرور الزمنى المستمر ·

ولو كان ادراكنا يقفز مع عقرب الثوانى كل لحظة لما استطعنا أن ندرك هذه الثوانى أبدا ·· ولانصرم ادراكنا كما تنصرم الثوانى بدون أن يلاحظ شيئا ·

وهى نتيجة مذهلة تستدعى وقفة تأمل طويلة ·

فها نحن أولاء أمام حقيقة انسانية جزء منها غارق فى الزمن ينصرم مع الزمن ويكبر معه ويشيخ ويهرم (وهو الجسد) وجزء منها خارج عن هذا الزمن يلاحظه من عتبة سكون ويدركه دون أن يتورط فيه ولهذا فهو لا يكبر ولا يشيخ ولا يهرم ولا ينصرم ·· ويوم يسقط الجسد ترابا سوف يظل هو على حاله حيا حياته الخاصة غير الزمنية ·· ولا نجد لهذا الجزء اسما غير الاسم الذى اطلقته الاديان وهو الروح ·

وكل منا يستطيع أن يلمس هذا الوجود الروحى بداخله ··

ويدرك أنه وجود مغاير فى نوعينه للوجود الخارجى النابض المتغير الذى يتدفق حولنا فى شلالات من التغيرات ٠

كل منا يستطيع أن يحس أن بداخله حالة حضور وديمومة وامتثال وشخوص وكينونة حاضرة مغايرة تماما للوجود المادى المتغير المتقلب النابض مع الزمن خارجه ٠

هذه الحالة الداخلية التى ندركها في لحظات الصحو الداخلى والتى أسميتها حالة حضور ٠٠ هى المفتاح الذى يقودنا الى الوجود الروحى بداخلنا ويضع يدنا على هذا اللغز الذى اسمه الروح ٠٠ أو المطلق ٠٠ أو المجرد ٠

ونحن حينما ندرك الجمال ونميزه من القبح ٠٠ وندرك الحق ونميزه من الباطل ٠٠ وندرك العدل ونميزه من الظلم ٠٠ فنحن فى كل مرة نقيس بمعيار ٠٠ بمسطرة منفصلة عن الحادث الذى تقيسه ٠٠ فنحن اذن نقيس من نفس العتبة ٠٠ عتبة الروح ٠٠ فالوجود الروحى يدل عليه أيضا الضمير ، ويدل عليه أيضا الاحساس بالجمال ٠٠ وتدل عليه الحاسة الخفية التى تميز الحق من الباطل والزائف من الصحيح ٠

هل هذه العتبة خارج الزمن هى الابد ؟ ٠٠ أم هى زمن آخر له تقويم مختلف ٠٠ اليوم فيه بألف سنة ٠٠ كما ورد فى القرآن « **وان يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون** » وكما جاء عن أيام الله ٠٠ وهى أيام غير أيامنا ، ذهب المفسرون فى تفسيرها كل مذهب ٠٠ كل هذه تفاصيل لا يمكن ادراكها ٠٠ وهى فى الغالب مجرد اشارات ورموز تشير ولا تبين وترمز ولا تشرح ٠٠ لأن بيان حقيقة الروح وكنهها أمر فوق مستوى ادراكنا ٠٠ أما الحكم بوجودها فهو الممكن وهو الواجب والضرورى ٠

ولعل الروح هى طابع الحسن الذى تركه الخالق على كل منا كأثر من آثار يديه ٠٠ ولعلها قبس من روحه اذ نفخ فينا من روحه ٠٠ ولعلها شرارة مقدسة من نوره وشعاع من شمسه

الابدية ٠٠ ان الكلمات تعجز دائما عن التعبير اذا حاولت أن تحيط بهذا اللغز ٠

ونحن لا نبتعد بعيدا اذا عرفنا الروح داخلنا بأنها الحرية ٠٠ حريتنا الداخلية العميقة الباطنة فى أعماق السريرة والتى شاء الخالق أن تكون طليقة من كل قيد وحفظها من كل دخيل ووضع جنده خارجها وجعلها قدس الاقداس وحرما محرما على الجميع الا صاحبها ٠

فنحن في أعماق سرائرنا نشــاء ونختار ونمتلك موهبــة التقدير والحكم والتمييز ، ولهذا اخلفنا الله على الارض وجعل منا ملوكا صغارا تحكم ٠٠ وجعلها لنا محنة وامتحانا واختبــارا وبروفة يكون بعدها سؤال وحساب وأعادة ترتيب فى مقامات يوضع كل واحد فى مقامه الذى استحقه بجدارته ٠

ان منطقة السريرة هى منطقة المســاءلة ٠٠ وفى الحديث الشريف (انما الاعمال بالنيات وانما لكل امرىء ما نوى)٠ ان منطقة النية والاضمار هى المنطقة التى يلاحظها الله بعلمــه (وهو علم حصر لا علم الزام) ويقيم عليها حسابه لأنها منطقة الحرية ٠٠ وانما يبدأ الجبر وتبدأ القيود حينمــا ننطلق من السريرة الى الفعل ثم الى التحقيق فى العالم المادى ٠٠ فتتصادم الحريات مع بعضها البعض ومع ظروف البيئة ومع المجتمــع وتتدخل الارادة الالهية لتحد من شر الشرير ولتفسح المجال للخير ولتخفف من ضررنا على بعضنا البعض بمقتضى ما فيها من رحمة ولتمد كل واحد بمدد من الامكانيات من جنس ضميره واستحقاقه ٠

ولهذا يستوى عندى أن أقول أن الله خلق لى روحا ٠٠ وأن اقول ٠ ان الله خلقنى حرية ٠٠ أو خلقنى فردا متفردا ٠

فكل عبارة منها تشرح الاخرى ٠٠ وتصف من الاعماق ما لا أستطيع أن أراه بالعين أو المسه باليد ٠٠ او اجد له الفاظــا ومصطلحات ٠

وفى منطقة الروح لا نستطيع أكثر من اشارة ولا نجد **أكثر** من رمز حيث نحن على عتبة خـــارج الزمن وخارج كل شيء محسوس ومنظور ٠

« ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم الا قليلا »

(الاسراء — ٨٥)

وهى الروح التي تمضى الى مستقرها بعدالموت حيث يفصلها عنا البرزخ الى يوم البعث ٠

وللماديين على اختلاف فرقهم ٠٠ نقول ما يقوله القرآن :

« وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم انا عاملون وانتظروا انا منتظرون ولله غيب السموات والارض واليه يرجع الامر كله »

(هود ـ ١٢٢ — ١٢٣)

فالروح غيب ٠

وما بعد الموت غيب ٠

ولا نملك فيه الا ذلك الخبر الذى اتانا به نبينا الكريم من لدن عالم الغيب الذى يرى ما لا نرى ويعلم ما لا نعلم ٠

لا كهنوت

كان القرآن حاسما قاطعا فى الغاء الكهنوت والوساطات الكهنوتية .. وقرر فى وضوح لا لبس فيه وفى عدة آيات متكررة .. ان الصله بين الانسان وربه صلة مباشرة .. وأن الله يرعى شئون مخلوقاته مباشره بدون مجلس ادارة وبدون سكرتارية وبدون وسطاء .

« قل لله الشفاعة جميعا »

(الزمر – ٤٤)

« واذا سألك عبادى عنى فانى قريب أجيب دعوة الداعى اذا دعان »

(البقرة – ١٨٦)

« وما جعلناك عليهم حفيظا وما أنت عليهم بوكيل »
(الأنعام – ١٠٧)

« ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين »

(النحل – ١٢٥)

« يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء »

(المائدة – ٤٠)

« قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض »

(سبأ – ٢٢)

بل يقول لنبيه :

« استغفر لهم أو لاتستغفر لهم ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله »

(التوبه – ٨٠)

الى هذه الدرجة يستحيل على نبى آن يبدل فى حكم الهى رغم الخصوصية والمقام الرفيع والقرب الذىينفرد به النبى عن باقى الخلق ٠٠ فما بال الفرد العادى ، ولو كان هذا الفرد اماما أو فقيها أو وليا يستوىالحال ٠٠ فلله الشفاعه جميعا ٠٠ وما من شفيع الا من بعد اذنه ٠

ولهذا لم يظهر فى تاريخ الاسلام منيبيع صكوك الغفران٠٠ أو من يصدر أمرا بحرمان أحد من الرحمة بحجة الكفر والضلال ٠٠ لأن القرآن قطع بأن « **ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين** »

لا أحد يستطيع أن يرى ما بالقلب سواه ٠

ولهذا لم تقم لرجال الدين دولة ولم يقم لهم كهنوت ولم ترتفع لهم وصاية على مصائر الخلق ٠

وبالمثل كان الجانب الطقوسي فى القرآن شديد البساطة ، فالصلوات خمس ولها مواقيتها من صبح وظهر وعصر ومغرب وعشاء (وهو تكرار لمجرد التذكير حتى يظل الله شاخصا فى قلب المؤمن فيعصمه من الخطأ) ثم التفاصيل من اغتسال بالماء للنظافة والتطهر وركوعوسجود لمغالبة كبرياء النفسوالتذكير بمقام المخلوق من الخالق ٠٠ وهى نوع من الرياضة النفسية

والجسدية والتربية الروحيه ٠٠ وفى اليوجا وهى موضهالمثقفين هذه الايام تمرينات أعقد وأشـق بمراحل ومع ذلك يتبـارى فيها المثقفون ٠

ورغم بساطة الطقوس فقد أباح القرآن اخنزالها اذا قامت الموانع ٠٠ فمن الممكن استبدال الوضوء بمسح الوجه واليدين بالتراب (التيمم) ومن الممكنالصلاة قعودا أو حتى رقودا بمجرد اغلاق العين رمزا للسجود ٠٠ ومن الممكن نطق الآيه فى السر بدل الجهر اذا قامت موانع من مرض أو غيره ٠٠ وبذلك تختزل الصلاة الى مجرد ذكر فى القلب ٠٠ بلا طقوس بالمرة ٠

وأى مكان فى الارض هو مسجد :

« فأينما تولوا فثم وجه الله »

(البقرة ـ ١١٥)

والصلاة صلة ، والله يأمر بها لنفع المخلوق ٠٠ وليستسلطا ولا ممارسة للالوهية فالله فى غنى عن العالمين ٠٠ وانما نحن المحتاجون اليه ٠٠ والصلاة وسيلتنا للاستمداد ٠٠ كما تتجه زهرة عباد الشمس الى الشمس لتستمد منها الحياة ٠٠ كذلك لابد لنا أن نتجه الى منبعنا ومصدر طاقتنا وخالقنـا اذا أردنا أن نستمد الحياة والنور والالهام ٠

والصيام رياضة روحيه وقهر للبدن وكبح والجام للعنصر الحيوانى فى الانسان ٠

وفى كل أنواع الرياضات الصوفية هندية كانت أم مسيحية أم بوذية يشترط الصيام ٠٠ وهو يتفاوت بين امتنـاع كامل الى اقتصار على الماء الى اكتفاء بالأغذية النباتية ٠ الى اجتنـاب كل ما فيه روح ٠٠ الى فترة صيام محدودة بين فجر ومغرب كما فى الاسلام ٠

والصيام الاسلامى أبسطها ٠

والصـيام يروض النفس على احتمال ما تكره ومقـاومة ما تحب ٠٠ وهو أساس الناموس الاخلاقى ٠

ولو لم يفرض الله علينا الصيام لفرضناه على أنفسنا لأنه رياضه روحيه ضروريه لتنميه الارادة والصبر والمصابرة ·· كما ننمي عضلاتنا بالسباحه والتجديف والألعاب السويديه ·· وكما نتقاطر ألوفا على ملاعب الكرة ·

ومع ذلك فالله يرفع تكليف الصيام عن غير القادر ويبيح الافطار للمرض والمشقة ويجعل اطعام المساكين فدية مشروعة للمفطر ·

أما الضجة التي أثيرت والكلام الكثير الذي قيل حول اقامه الحد في القرآن بقطع يد السارق فهي ضجة مفتعله ·· لأن الآية تفسح المجال للعفو عن التائب فمن يسرق ويقول صادقا تبت ولن أسرق بعد الآن يعطي لولي الامر مجالا لرفع الحد عنه ·

« فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فان الله يتوب عليه ان الله غفور رحيم »

(المائدة – ٣٩)

ومن سرق للجوع أو للحاجه لا يصح شرعا اقامه الحد عليه حتى لو كان يسرق عن اصرار وعمد · فلا يبقى بعد هذا الا السارق الذي يسرق دون احتياج ثم يتبجح رغم هذا ويرفض أن يتوب ·· وهو اما حاله عقليه توضع في مستشفى المجانين ·· أو جبار يجب قطع دابره لا قطع يده فقط ·

وفي نص القانون السوفييتي توقع عقوبه الاعدام على من يسرق ويختلس مال الشعب ··· وتنشر أخبار أمثال تلك المحاكمات في الجرائد الرسميه ·

وفي الانجيل « ان أعثرتك يدك فاقطعها وان أعثرتك (أي أوقعتك في خطيئة) عينك فاقلعها » ·

والقرآن أرحم ·

أما النقد الذي وجهه المستشرقون لموقف القرآن من مشكلة الرقيق فهو نقد مردود عليه · فان تسريح الرقيق فجاة وبتشريع منزل في مثل الحالة الاجتماعية التي كان عليها عرب

الجاهلية ·· كان معناه خروج آلاف المتسولين الى الطـــريق بلا مصدر رزق وبلا صناعة أو زراعة تستوعبهم وهى كارثة وليست حلا ·

والحل الأمثل هو الذى نزلت به الآيات بألا يكون هنـــاك مزيد من الاسترقاق ·· وكان مصدر الرقيق هم أسرى الحروب وكانت وصية القرآن تسريح الاسرى أو طلب الفدية فيهـم : « فاما منا بعد واما فداء » بلا اســترقاق ·· أما الموجود من الارقاء فيتم تصفيتهم بالتدريج ·· اذ جعل القرآن فك الرقبة كفارة للذنوب صغيرها وكبيرها ·· وجعلهـــا وســيلة تطهير للنفس واقتحام لها ·

« فلا اقتحم العقبة وما أدراك ما العقبة فك رقبة »

(البلد ـ ١١ ، ١٢ ، ١٣)

تحرر نفسك بأن تفك عنها أغلال استعبادها للآخرين ·· تبلغ الحرية بأن تحرر غيرك ·· وأنت بذلك تقتحم على نفسك شهواتها · وهى العقبة الكبرى ·· فلا عقبه أمامك سواك انت

بهذا أغلق الباب أمام مصدر الرق وعمل على تصفيه الموجود·

واذا كان ما حدث فى أيام الدولة الاموية هو العكس فليس الذنب ذنب القرآن ·· وانمــا ذنب النظــام الذى تفســـخ بقصور الخلفاء التى تحولت الى مسارح للمتع الحســيه عــــلى الطريقة الفارسية ·

أما القرآن فهو روحا ونصا يؤكد الاخوة بين جميـــع بنى البشر مهما اختلفت ألوانهم وأجناسهم ·

« يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء »

(النساء ـ ١)

« انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبــائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم » ·

(الحجرات ـ ١٣)

« ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله »
(آل عمران - ٦٤)

أوامر صريحة بألا يستعبد انســان انســانا ‥ ويقيم من نفسه ربا والها عليه ‥ وبأن الكل أسرة واحدة من أب واحد‥ لا يرتفع واحد على آخر الا بتقواه ·

والحق أن الرق الذى كان على أيام العرب لا يساوى واحدا من ألف من رق شعب كامل مثل الشـــعب الألمانى أيام حكم هتلر ‥ يحدث هذا فى أوروبا ‥ وفى ذروة القرن العشرين·

●●●

والدين فى القرآن ايمان وأخلاق وعمل صالح ·

وهناك تركيز على الاخلاق والتعاليم الاخلاقية من أول صفحة فى القرآن الى آخر صفحة ، والاستدلالات على ذلك لا تنتهى ·

« ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل »

(النساء - ٥٨)

« يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شـــهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعـــدلوا (لاتدفعـــكم الكراهية الى تحامل) **اعدلوا هو أقرب للتقوى »**
(المائدة - ٨)

« ولا تقربوا الزنا انه كان فاحشة وساء سبيلا »
(الأسراء - ٣٢)

« ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم »
(الانفال - ٤٦)

« ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن »
(النحل - ١٢٥)

« يا أيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسـق بنبأ فتبينوا ان تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين »

(الحجرات ـ ٦)

« ان الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا فى الدنيا والآخرة »

(النور ـ ٢٣)

« يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قـوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ولا تلمزوا أنفسـكم ولا تنابزوا بالالقـاب بئس الاسـم الفسوق بعد الايمان »

(الحجرات ـ ١١)

« يا أيها الذين آمنوا لاتدخلوا بيوتا غـير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها »

(النور ـ ٢٧)

« وأوفوا بالعهد ان العهد كان مسئولا »

(الأسراء ـ ٣٤)

« يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن أن بعض الظن اثم ولا تجسسـوا ولايغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه »

(الحجرات ـ ١٢)

« وان أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه »

(التوبة ـ ٦)

وفى أدب الحروب وأخلاق الحـروب يأتينا القرآن بأجمل دستور :

« يا أيها الـــذين آمنـــوا اذا لقيتم الذين كفروا زحفـا فلا تولوهم الادبار »

(الانفال - ١٥)

« ان الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص »

(الصف - ٤)

« ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وان يكن منكم مائة يغلبوا ألفــــا من الذين كفــروا بأنهم قوم لا يفقهون »

(الانفال - ٦٥)

« قل لن ينفعكم الفرار أن فررتم من الموت أو القتل واذا لاتمتعون الا قليلا »

(الأحزاب - ١٦)

« قل من ذا الذى يعصمكم من الله أن أراد بكم سوءا أو أراد بكم رحمة »

(الأحزاب - ١٧)

« قل ان الموت الذى تفرون منه فانه ملاقيكم ثم تردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون »

(الجمعة - ٨)

وفى الخيانة الزوجية يذكر القرآن هذه الآيات :

« ضرب الله مثلا للذين كفروا امـــرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين »

(التحريم - ١٠)

وفى النفاق :

« يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالاتفعلون كبر مقتا عند الله ان تقولوا مالا تفعلون »

(الصف ـ ٢ ، ٣)

« ان المنافقين فى الدرك الاسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا »

(النساء ـ ١٤٥)

« المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون ايديهم نسوا الله فنسيهم ان المنافقين هم الفاسقون »

(التوبه ـ ٦٧)

وفى البخل والانفاق :

« لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون »

(آل عمران ـ ٩٢)

« ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة »

(الحشر ـ ٩)

« ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا »

(الاسراء ـ ٢٩)

وفى الغرور والتواضع والمرحمة :

« ان الله لا يحب من كان مختالا فخورا »

(النساء ـ ٣٦)

« واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا »

(الاسراء ـ ٢٤)

وفى العفو :

« وليعفوا وليصفحوا الا تحبون أن يغفر الله لكم »

(النور - ٢٢)

« ادفع بالتى هى أحسن السيئة »

(المؤمنون - ٩٦)

« ولمن صبر وغفر ان ذلك لمن عزم الامور »

(الشورى - ٤٣)

وفى آيات جامعة يجمل هذه التعاليم الخيرة ٠

« ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم اذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون »

(البقرة - ١٧٧)

ولن تنتهى الامثله ، فالقرآن كله وثيقه اخلاقيه ٠

وقد يعترض معترض فيقول : لسنا فى حاجة الى قرآن لنكون على أخلاق ٠ والانجليزى فى لندن هو نموذج للاخلاق الحسنة دون أن يقرأ قرآنا ولاانجيلا ودون أن يؤمن بأى دين بالمرة ٠

وصاحب الاعتراض لا يميز بين نوعين مختلفين من الاخلاق ٠ نوع من الاخلاق هو فى حقيقته ذكاء اجتماعى وليس أخلاقا وهو أشبه بذكاء البقال الذى اكتشف أن حسن المعاملة بضاعة رابحة فى ذاتها وأنها تكسب له قلب الزبون وجيبه فهو يعطى المحبة ليقبض محبة ٠

ومثل هذه الاخلاق تنبعث من عقل نفعي ذكي ويربيها الاب في ابنائه على شكل عادات حميدة ويعتبرها جزءا من وسائل كسب الاصدقاء والنجاح في العمل ‥ فهي من أولهـــا الى آخرها نوع من الحرص على الدنيا واتقان كل وسيلة الى امتلاكها.

وما يربيه الدين من أخلاق مختلف عن هذا تماما ، بل يكاد يكون عكسه فالمتدين يرى الدنيا عرضا زائلا لا يستحق أن يحرص عليه ومحبة الله ولقاؤه هي دائما هدفه ‥ وهو لهذا يعطي المحبة من القلب للجميع دون أن ينتظر عليها جزاء من مخلوق ‥ وهو يعطي ماله ووقته وصحته دون نظر الى جدوى لأن ما يعطيه لا يساوي في نظره شيئا يذكر ‥ وهو لا يشعر بالدنيا التي تتسرب من يديه لأن عينيه على الآخرة ، على رضا الخالق لا على رضا المخلوق.

وهو لهذا يمكن أن يحب عدوه ويمكن أن يبذل له النصـــح والمعونة. ويمكن أن يعطي وهو محتاج ويتصـدق وهو فقـير ويطعم وهو جائع ‥ وهذه هي الاخلاق الحقيقية.

وهي لا يمكن أن تكون الا لمـــؤمن ، ليس شرطا أن يكون المؤمن مسلما ، وانما يمكن أن يكون مسيحيا.

ولكن مثل هذه الاخلاق لا يمكن أن تكون لرجل مادي بلا دين. والرجل المادي في أحسن الحالات رجل مهذب حســـن المعاملة بحكم ذكائه الاجتماعي وبحكم فطنته الى قوانين النفع والضرر وهو يحب بعقله ولهدف وغاية.

واذا أحب المادي بالروح والقلب ، وأعطى للعطاء فهـــو متدين في أعماقه وهو مخدوع في نفسه اذ يضع نفسه مع الماديين ‥ وسوف يأتي اليوم الذي يفطن فيه الى ولائه الحقيقي والى انتمائه.

والقلب دائما هو المؤشر الحقيقي ، وهو أحسن من يدلك على مكانك.

وهل انت مع المؤمنين أم مع الماديين ·

وما اكثر المتدينين الذين يصلون ويصومون وهم عمي القلوب غلاظ الارواح ليس لهم من الدين الا بطاقة الميلاد ·

وما أكثر من يضع على صدره بطاقة المفكر المادى وهو ابعد ما يكون بالقلب عن التفكير المادى والعقـلانية ·· وهو بروحه مسيحى شفيف الوجدان أو مسلم متدين القلب ·· وضـع نفسه فى الطابور الخطأ ليلبس أمام نفسه وأمام الآخرين ثوبا عصريا ويشعر بنفسه مع الموضه ·

ومعرفة الانسان لنفسه صعبه وشاقة وأحيانا لا يكتشـف الانسان حقيقته الا عبر معارك وطريق شائك ·

والصراط المستقيم الذى تكلم عنه القرآن هو هذا الطريق الشائك الى معرفة النفس ثم الاتجاه بها الى خالقها · أنه طريق الهجرة ، عودا من مستقر التراب الى منبع الحق والنور ·

وليس أجمل من كلمات القرآن دليلا مرشـدا الى هذا الطريق ·

لا إله ألا الله

لا موجود بحق الا الله .

آنا وانت وهو وهم ونحن كلنا مجرد صور تبرق وتختفى على شاشة الوجود كما تتجمع الصور على شاشة التليفزيون ثم تتبدد وتزول عند انقطاع التيار .. ثم تعود فتتجمع صور اخرى عند وصل الكهرباء .. ثم تعود فتزول هى الاخرى .. وهكذا دواليك تتعاقب الأعصر والدهور كما تنبت أوراق الاشجار الخضر فى الربيع ثم تعود فتسقط فى الخريف .. وتتراكم الاوراق الميته كما يتراكم الموتى بعضهم فوق بعض ترابا .

رب لحد قد صار لحدا مرارا
ضاحكا من تزاحم الاضداد
ودفين على بقايا دفين
فى طويل الازمان والآباد

حتى ليصبح أديم الارض بعد ملايين السنين هو اجدادنا « خفف الوطء ما أظن أديم الارض الا من هذه الاجساد »

ومن تحت ركام التراب يستخرج الحفارون مكحلة ٠٠ ينظر اليها خبير الآثار فيقول انها مكحلة اخت الحاكم بأمر الله وعمرها تسعمائة سنة وفيها بقايا كحل ٠

اين اخت الحاكم بأمر الله ؟

واين عصرها ؟

أنت تكاد تسمع خطوات الجوارى ٠٠ وترى الماشطات والوصيفات ٠

وعن بعد تصطك سيوف الحراس ٠٠ ويرتفع صوت مؤذن وتصهل الخيول ٠٠ وينادى أغا القصر على رسول قادم من قادش ٠٠ ويقبل علينا الحاكم بأمر الله فى هيلمان الخدم والحشم ٠

أين كل هذا ٠

تحت الردم ٠٠ انتهى ٠٠ أصبح ترابا ٠٠ كان حلما فى مخيلة الزمان وغدا نصبح أنا وانت تحت الردم ٠

ويصبح عصرنا سطرا فى كتاب ٠ ٠وحلما فى مخيلة مؤرخ ٠

ويعثر الحفارون على علبة سجائرك فى التراب فيؤلفون قصة عن أمير مات مسموما بدخان التبغ ٠

وتضيع الحقائق كما ضاع أصحابها ٠

فالكل الى موت ٠

الممثل والجمهور والناقد والحقيقة ٠٠ لانه لا حقيقة سوى الواحد الأحد الحى الذى لا يموت ٠

« انك ميت وانهم ميتون »

(الزمر ـ ٣٠)

افق الى نفسك فانت غير موجود ٠٠ انت ظل ٠٠ وشأنك شأن الظل ٠٠ موجود على الارض مادامت الشمس فى كبد السماء فاذا غربت لم يعد لك وجود ٠٠ واختفت معك كل الظلال التى كانت تتطاول بأعناقها الى جوارك ٠

وجودك كان يعتمد على مدد من سواك ·· فهو وجود غير حقيقي ·· وجود مفتقر الى غيره ·· أنت موجود بالله وبالمدد الذى يمدك به ·· فاذا قطع عنك المدد انتهى أمرك ·

أما الله فهو موجود بذاته ·· ومستغن عن غيره ·· وعن كل الاغيار فهو الموجود بحق ·· لا موجود بحق سـواه ·· ومن ثم ·· « **لا اله الا هو** » ·· منه ينبع الكل واليـه يعود الكل ·· وهو الباقى أبدا وماعداه زائل دواما ·

وينزل الوحى على محمد ليقول له :

« **فأعلم أنه لا اله الا الله واستغفر لذنبك** »

(**محمد ـ ١٩**)

ويقول له فى سورة النحل عن الله :

« **ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا اله الا أنا فاتقون** »

(**النحل ـ ٢**)

انه أول وأهم خبر تأتى به السماء ·

« **لا اله الا الله** »

وهو قلب القرآن وقلب الاسلام وقلب كل العقائد ·

ومن هنا كان الحديث النبوى الشريف « خير ما جئت به أنا والنبيون من قبلى هى كلمة لا اله الا الله »

وهى « كلمة التقوى »

« **فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها وكان الله بكل شىء عليما** »

(**الفتح ـ ٢٦**)

وكلمة التقوى هى لا اله الا الله ·

وهى تسبيحة الملائكة فى الملأ الاعلى ٠

وهي الشهادة يتلوها كل مصـــل عشر مرات كل يوم فى صلواته وهى كلمة النجاة ينطقها السعيد فى حشرجة الموت قبل أن يلفظ آخر انفاسه ٠

وهى كلمة النذير بأن كل شيء الى فناء وبأن كل هذا العالم ديكور من ورق اللعب ومدينة مزيفة مصيرها ان تفك وتعاد الى علبتها ٠٠ وهى كلمة لو اصبحت دستور الحياة كلها فانها كفيله بتغيير هذه الحياة الى نهج أشرف وأجمل وأصدق ٠٠ الى حياة لا عبرة فيها الا بالقيم الباقية ٠

« لا اله الا الله ٠٠ اذن لا معبود الا الله »

ولن يعبد بعضنا بعضا ٠٠ ولن يتخذ بعضنا بعضا أربابا

ولن نقتتل على شيء وقد أدركنا أنه لا شيء هناك ٠

ولن يأخذنا الغرور وقد أدركنـــا اننا خيالات ظل تموج على صفحة الماء ٠٠

ولن نفرح بثراء ولن نحزن لفقر ولن نتردد أمام تضحية ولن نجزع أمام مصيبة فقد أدركنا أن كل هذه حالات عابرة

وسوف تلهمنا هذه الحقيقة أن نصبر على أشد الآلام ٠٠ فهى آلام زائلة شأنها شأن المسرات ٠

لن نخاف الموت ٠

وكيف يخاف ميت من الموت ٠

ولن يخاف بعضنا بعضا ٠٠ وكل واحد فينا قد عرف أنــه ليس الا خيالا لا يرهب الا العصافير ٠

وسوف نحب ونعطى فى تواضع ٠

وسوف نصمد ونقاتل فى شجاعه ٠

وسوف نتلقى أوسمة المجد فى خجل ٠

وسوف نستمع الى كلمات المديح والاطراء فى حياء

وسوف نتحمل بغير حدود ٠٠ ونضحى بغير حدود ٠

لن نخاف الحرب ولا القنبلة ولا الميكروب ولا المرض ٠٠ لاننا أدركنا وحدة الفاعل ٠٠ وأنه لا فاعل في الحقيقة الا الله وكل هذه أسباب ٠٠ الميكروب لايضر ولكن الله هو الضار النافع ٠٠ وهو الذى يسلط الاسباب ٠٠ هو الذى خلق العقرب والسم والوردة ٠٠ وهو الذى ينشر العبير وينشر السم في العروق ٠٠ هو مناط الهلاك ومناط النجاة ٠٠ لا راد لقضائه ولا معقب لأمره ٠٠ هو الفاعل الوحيد وكلنا أدواته ٠

وسوف تمتلىء قلوبنا سكينة وطمأنينة وأمنا ٠٠ فقد أدركت هده القلوب ان مددها من الحى الذى لا يموت ٠

ومن يؤمن بأن القوة كلها لله ومقاليد الامور بيد الله سوف يكون متوكلا ٠٠ والتوكل غير التواكل ٠

التوكل يقتضى العزم وجمع الهمة وبذل قصارى الجهد مع التفويض دائما واسلام الأمر الى المشيئة فى نهاية المطاف فيكون نجاح المسعى أو فشله أمرامقدرا كما أن الجهاد ذاته كانمقدرا ٠

« فاذا عزمت فتوكل على الله »

(آل عمران - ١٥٩)

وانما يختلف المتوكل عن الرجل المعتد بنفسه بأنه متبرىء من الحول والطول ٠٠ يعمل فى نشاط ثم يرجع نجاحه الى الله لا الى ثمرة يديه ٠٠ ويسمى نجاحه توفيقا ٠٠ لا أحرازا أحرزه بارادته ٠

ويقول عن عمل يديه انه كان سببا ضمن عديد الاسباب التى يسرها الله ليوفقه الى ما صار اليه ٠

أما الرجل المعتد بنفسه فيتصور أن كل مابلغه فى حياته كان بذكائه ونشاطه ويقظته ولا يتصور وجود ارادة أخرى غير ارادته تعمل فى حياته أو فى الكون ٠

والمتواكل انسان ثالث مختلف عن الاثنين فهو انسان متقاعد كسول فاتر العزم فاتر الهمة لا يحرك ساكنا ويريد من الله

أن ينجز له كل شيء · ومثله مثل اليهود الذين دعاهم موسى ليقاتلوا معه فقالوا ·

« فاذهب أنت وربك فقاتلا انا ها هنا قاعدون »

(المائدة – ٢٤)

والمتوكل يثق فى نفسه ويثق فى الله ·

أما المتواكل فلا يثق فى نفسه ولا يؤمن بالنظام الذى اقامه الله وربط فيه كل شيء بسلاسل من الاسباب وجعل من العزم سببا ضروريا لانجاز أى شيء ·

ومثل المتوكل الصادق مثل المسافر الذى يفكر فى السفر الى الاسكندريه فيسارع فى همة ونشاط الى حجز التذكرة ثم يحزم حقائبه ويهرول الى القطار فى ميعاده ·· حتى اذا استقل مقعده من القطار اسلم أمره الى السائق وقد وثق تماما فى قدرة هذا السائق ومهارته وفى دقة القوانين التى تجرى على وفاقها عجلات القاطرة ·· وبلغ من هذه الثقة وهذا التسليم انه ·· نام مطمئنا فى مقعده كطفل ·· ولو انه قام منزعجا ليقف وراء السائق ويتدخل فى قيادته للقاطرة ·· لاعتبره الناس رجلا أحمق يتدخل فيما لا يعرف ·

ونحن فى الدنيا مثل هذا المسافر نحاول فى همة ونشاط أن نحجز لأنفسنا أحسن الأمكنة فى هذه المركبة التى اسمها الدنيا وفى نفس الوقت نسلم الأمر فى ثقة وتوكل تام الى السائق الذى يقود هذه الدنيا ونثق فى قوانينه ·· وهو الله القادر الذى تفوق قدرته ومهارته مهارة جميع السائقين ·

وتملأ هذه الثقة قلوبنا ونحن نعمل ونجاهد فنمتلىء سكينة وطمأنينة وأمنا بأن العدل يجرى مجراه وأن كل واحد يأخذ مايستحقه فلا نحزن على فشل ولا نغتر بنجاح ·· ولو إستولى علينا الانزعاج لما يجرى علينا من أقدار لكان هذا الانزعاج هو دليل عدم ايماننا وعدم ثقتنا فى القائد ·

أما المتواكل فهو مسافر من نوع آخر يفكر فى السفر دون أن يحتشد لهذه الفكرة بأى عزم فلا هو يسارع الى حجز تذكرة ولا هو يبادر الى حزم حقيبة ٠٠ وانما يقول لك أنه مؤمن بالله ٠٠ ومعتمد على الله ٠٠ وأن الله سوف يرسل له من السماء ثمن التذكرة أو يسوق اليه من يتطوع بحمله مجانا فى عربته ٠٠ وتكون نهايته بالطبع أن يبقى حيث هو فى فراشه ٠٠ ويلقى ذنب فشله على الله ٠٠ أو يقول انها ارادة الله وأنه يقبلها لأنه مؤمن ٠٠ والواقع أن تصرفاته لا تدل على ايمان ٠٠ فمن يؤمن بالله لابد أن يؤمن بنظامه الذى أقامه فى الدنيا وربط فيه الاسباب بالمسببات ٠٠ وجعل من العزم والعمل مقدمة ضرورية وسببا لازما لانجاز أى شىء ٠٠ وأمر بالعمل أمرا ٠

« وقل اعملوا فسيرى الله عملكم »

(التوبة ـ ١٠٥)

والتوكل مقام عظيم لا يستطيع أن يبلغه الا متصوف ومؤمن ثابت القدم يؤمن بحق أنه ٠٠ لا اله الا الله ٠٠ ولا مريد فعال مهيمن الا الله ٠

وهو يثق فى الله ويحب الله ويحب نظامه ويرضى ما شرط من تكاليف وأعباء فيحمل التكليف وينهض بالعبء ويبذل غاية الجهد وقد فوض الامر فى كل لحظة الى الله لا يهمه أن ينجح المسعى أو يفشل فهو واثق فى الحالين أنه سيصيب ما يستحق وأن الله هو الحكم العدل الذى لايظلم أحدا فاذا أصاب النجاح نفض يديه من غرور هذا النجاح وتبرأ من فضله وأنكر دوره وقال فى تواضع ٠٠ ما أصبت هذا الا بفضل الله ٠٠ وماحدث الذى حدث الا لأن الله أراد وهيأ الاسباب ٠٠ وما كنت أنا وما كان عملى الا سببا ضمن ما هيأ الله من أسباب ٠٠ له الحمد فى الاول والآخر ٠٠ واذا أصابه الفشل لم يتغير ولم يتحسر ولم يندم على فوت وقال فى ثقة ٠٠ بل هيأ الله لى الصالح ٠

« وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون »

(البقره - ٢١٦)

وهو فى كل لحظة يتذكر ويذكر نفسه ·· بأنه لا يعلم ·· وبأن الله وحده هو الذى يعلم ·· فلا يصح الاعتراض على مشيئته · انه رجاع دائما الى الله معتمد عليه مكافح برغم ذلك أبدا باذل وصارى الجهد والطاقه مؤمن بأن هذه سنه الله فى خلقه ·

ان كلمة لا اله الا الله بالنسبه له ليست حروفا ولكن منهج حياة و شريعة قلب ·

لقد جعل منها دليله ونوره الذى يمشى عليه ·· ولهذا كان متبرئا فى كل لحظة من حوله وقوته ·· فهو يؤمن بأنه لاحول له ولا قوه ·· وانه لا حول ولا قوة الا بالله ·· فهو الوحيد القادر ·· وهو الوحيد الموجود بحق ·

وهذه هى التقوى ·

ولهذا كانت كلمه « **لا اله الا الله** » فى القرآن هى كلمة التقوى لأنها تورث التقوى ·

ومن يقولها ويتمثل معناها عقلا وقلبا ويجعلها منار حياته فقد امسك الدين كله ·

ويقول الله عنها فى حديث قدسى :

« لا اله الا الله » حصنى ، فمن قالها دخل حصنى ، ومن دخل حصنى أمن عذابى ·

وهى فاتحة التسابيح يبدأ بها المتصوفة عهودهم وأورادهم وتسبيحاتهم لأنها كلمة التعريف بالله وبأنه لا موجود بحق الا هو ·· وكل ما عدا وجوده فهو من قبيل الوهم والسراب وخداع الحواس ·

هو الحى الباقى يعطى الحياة للكل ولا يستمد حياته من احد

وهو النور ، به نرى الاشياء ·· نور العين ونور العقل ونور القلب ·

وهو الحق وما عداه باطل ·

وهو المتعال ·· ملء الارض والسماوات ومتجاوز لها ومتعال عليها لا يتحيز فى مكان ولا يتحدد بزمان

وهو القوى بلا نهاية

والموجود بلا بداية ·

وهو الواحد الاحد المرتجى ·· لا يرتجى غيره ··

سبحانه لا اله الا هو تقدست ذاته ·· وجلت وتنزهت عن الاوصاف ·

ليس كمثله شيء في السماء ولا فى الارض ·

أحاط بالابصار ولم تحط به الابصار ·

لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ·

تقدس عن أن تكون له صاحبه ولا ولد ·· وكيف يحتاج الى ولد ·· وهو الذى بيده ملكوت كل شيء ·· وهو الغنى المستغنى الجبار القهار المهيمن على العالمين ·· يبدأ الخلق ثم يعيده بكلمة منه ·· وتنفذ البحار ولا تنفذ كلماته ·

احتجب عنا من فرط اشراقه وغاب لفرط دوامه واختفى لفرط ظهوره ·

منه المبتدا واليه المآب والمنتهى ·

ولا سلام الا فى معيته ولا سكينه الا فى حضرته ·

هو مولانا وربنا وسع كل شيء رحمة وعلما ·

ما قدرناه حق قدره ·· ولا نستطيع ولو أردنا ·· وكيف نحصى ثناء عليه ونحن لا نحيط بفعله ولا بعلمه ولا بآثاره ، فلا طاقة لنا بحمده ·

ولهذا حمد نفسه بنفسه فى فاتحة كتابه فقال : « **الحمد لله رب العالمين** »

هو الحامد والمحمود لأنه وحده الموجود بحق ٠٠ وما نحن الا فيض كرمه ٠

وهو الوحيد القادر على الحمد لأنه الوحيد العالم بخفايا أفعاله وما نحن الا سهود لذرة واحدة من ذراته هى الأرض فى سماوات لا تتناهى آفاقها ٠

وهو اللطيف الكريم قد ارتضى لنا هذه الصيغه لنحمده بها فنقول « **الحمد لله رب العالمين** » فى بداية كل صلاة ٠

وهو قد علمنا انه قد خلق العالم باسمه الرحمن الرحيم لا باسمه القهار الجبار ٠٠ فهو قد خلقه بالرحمة ٠٠ بل بمطلق الرحمة (والرحمن هو من يسبغ مطلق رحماته على كل ما يخلق ما يستحق الرحمه وما لا يستحقها) فنقول فى بدء كل شىء ٠ « **بسم الله الرحمن الرحيم** »

لأنه باسمه الرحمن الرحيم بدأ الخلق فأوجد كل شىء رحمة لا قهرا : كتب على نفسه الرحمه ٠

وقال عن نفسه فى حديث قدسى : «سبقت رحمتى غضبى»

وهو فى « الفاتحة » الرحمن الرحيم أولا ثم مالك يوم الدين ثانيا ويوم الدين هو يوم الغضب والحساب ويوم يدان الانسان بما قدمت يداه ٠

« ولا اله الا الله » تشتمل فى داخلها على مطلق التوحيد ٠

وفى الفاتحة آيات جميلة تحشد الانتباه لتتوجه به الى ذلك الواحد ٠

« **اياك نعبد واياك نستعين اهدنا الصراط المستقيم** »

انت وحدك الذى نعبد

وأنت وحدك الذى نستعين ٠

وأنت وحدك وسيلة الهداية الى الصراط المستقيم فاهدنا اليه ٠

والصراط المستقيم هو الطريق المؤدى الى الله والى الحق والنجاة ٠

ولهذا كانت الفاتحة هي تعـــريف بالله وبالطريق اليه فى ايجاز بليغ يلخص مضمون القرآن كله فى ســـبع آيات ·· فما القرآن كله فى جوهر الامر الا تعـــريف بالله وبآخرته وبالطريق اليه ·

والله فى القرآن ذات وأسماء وصفات وأفعال ·

وأفعال الله هى الكون كله بما فيه من سماوات وأرضـــين ومخلوقات ·

والجنة والجحيم والآخرة هى بعض ما خلق ·

والطريق الى الله فى القرآن وسيلته العبــادة والشريعـــه والمحبة ·· وهذا هو الصراط المستقيم المؤدى الى النجاة ·

والفاتحة توجز كل هذه الحقائق وتقدمها فى سباعيه من الآيات أشبه بسيمفونيه ذات نغم رحمانى جميل ·· ولهـــذا قال نبينا عن الفاتحة أنها أفضل القرآن وعن آيه الكرسى أنها سيدة آيات القرآن وعن سورة ياسين أنها قلب القرآن ·

والذى يقرأ القرآن فى تفكر وتأمل يشعر أنه خرج جميعه من بذرة واحدة هى كلمة « **لا اله الا الله** » تفـرعت وأورقت وأثمرت شجرة القرآن كله ·

من التوحيد نشأت كل أعداد المعارف والعلوم ·

يبدو هذا فى آية رائعة مثل آية الكرسى التى تبدأ بالتوحيد ثم تتسلسل الى صفات ذلك الواحد القيوم ·

« الله لا اله الا هو الحى القيوم لا تأخذه ســنة ولا نوم له ما فى السماوات وما فى الارض من ذا الذى يشفع عنده الا باذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولايحيطون بشىء من علمه الا بما شاء وسع كرسيه الســـماوات والارض ولا يئوده (ولا يشـق عليـــه) **حفظهما وهو العلى العظيم »**

(البقرة ـ ٢٥٥)

وأكثر من سورة وأكثر من آيه فى القرآن نبدأ بكلمـــه التوحيد أو تنتهى بها أو تنتهى اليهـــا . كل شىء يبدأ من الواحد وينتهى فى آخر الامر راجعا اليه .

ونعلم من أوليات الحساب أن الواحد ينقسم الى ما لانهاية فيعطى جميع الاعداد والكسور والاجزاء .

والله الواحد يعطى كل الاعداد من كل شىء ولكن دون أن ينقسم ولهذا قال عن نفسه أنه الاحد .

والاحد هو الواحد الذى لايقبل القســمه او التجــزئه ولا يتألف من أعضاء .. فهو أحد .. كامل متكامل بذاته ، لا يمكن أن يكون له بعض .. وانما هو دائما كل .

ولأنه أحد ولا يمكن أن يكون اثنين بالقسمه او بالتكاثر ، فهو « السلام » .. لا تقوم فيه حرب أو صراع .. لأنه لايمكن أن تقوم حرب الا بين طرفين .. وهو دائما أحد .

ولهذا كان من أسمائه الحسنى .. انه « السلام » .

ولنبلغ السلام نحن أيضا لا طريق لنا الا أن نتوحد فيمـــا بيننا كدول وأمم وطوائف .

ولا يمكن أن يحقق الفرد منا سلامه الداخــلى الا اذا توحد داخل نفسه فتوحدت رغبته مع عقله مع ارادته مع هدفه .. وهذا لا يتم الا اذا توحد مع الله ذاته .. وذلك بأن يكون مع الله بالمعنى الصوفى .. أىعلى الصراط المستقيم المؤدى الىالله .

والاعداد والحروف لها علم عند الصوفية .

وكل رقم له دلالة .. وكل حرف له رقم يقابله .. وبعض الارقام لها قدسية خاصة .. مثل رقم ٧ ، فان السموات سبع والارضين سبع وألوان الطيف سبعة ودرجات السلم الموسيقى سبع وأيام الاسبوع سبعة وأبواب جهنم كمـا جاء فى القرآن سبعة وآيات الفاتحة سبع .. والله يسميها فى كتابه السـبع المثانى .

والحروف لها أسرار هي الاخرى .

وحرف مثل حرف « الحاء » نراه يدخل تلقائيا في تركيب كل الكلمات التي تشترك في معنى السخونه مثل :

حب ، حرب ، حريق ، حرارة ، حر ، حمى ، جحيم ، حلو حراق ، حريف ، حار .

وهذا يعنى أن الحرف له خاصية في ذاته ومعنى في ذاته ودلالة في ذاته .. بغض النظر عن الكلمات التي يدخل فيها .

وهذا دليـــل قاطع على أن الحروف التي نزلت في بداية السور مثل ألم .. طسم .. كهيعص .. حم .. طس ، ق ن .. ص .. هي حروف لها معنى في ذاتها .. وكلمات لهـا سرها ومدلولها وان غاب عنا فهمها .

وهي علوم عليا سوف نصل اليها فيما بعد .

ولا يوجد في القرآن حرف زائد ولا حرف ناقص ولا حرف في غير مكانه .. وكل حرف له حكمه .

والله هو المعلم الاول .. « **الذى علم بالقلم علم الانســان ما لم يعلم** »

(العلق ـ ٤ ، ٥)

هو الذى الهمنا الحروف وعلمنا بعض أسرارها .

ويقول القرآن عن كاتب الشهادة « **ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله** »

وفي سورة البقرة « **واتقوا الله ويعلمكم الله** »

فالله هو المعلم وما الجامعات والمدارس والمكتبـــات والكتب الا أسباب ووسائل .. لكن الله هو الواهب الحقيقى للعـلم فهو الذى أعطانا النفس القابلة للتعلم والعقل المدرك والذاكرة الحافظة ثم الهمنا الحق والحرف والكلمة .

وانا لنجد كلمه واحدة مثل « أم » تتشابه في جميع اللغات بين عربية وانجليزيه وفرنسيه حتى في لغة النيام نيام نجد لها نفس التركيب ٠ فهي أم ، وماما ، ومامي ، وموما ٠

و « موما » هي كلمة « أم » بين زنوج النيام نيام ٠

وبالمثل الأب : أب ، بابا ، بابى ، بوبا ٠

وهم ينادون « الاب » ، « بوبا » في قبائل النيام نيام ٠

وهذا التشابه بالرغم من تباين الاماكن والاقطار يدل على وحدة المصدر وعلى أننا تلقينا الحروف الاولى الهاما ٠٠ واننا أدركنا بعض مدلولات تلك الحروف وأسرارها واستخداماتها من نفس المصدر ٠ واشتراك حرف الباء في جميع ألفاظ الاب يكشف عن خاصية وسر ومدلول في لفظ الباء ٠

وبالمثل حرف الميم في لفظ الأم ٠

وكل حرف من حروف اللغة له خواصه التعبيريه وأسراره ٠

ونحن لم نتعلم من هذه الاسرار الا القليل ٠

وحينما يطالعنا القرآن بتلك الحروف المطلسمه في بدايات السور أمثال ٠٠ طسم ٠٠ كهيعص ٠٠ حم ٠٠ طس ٠ فانه يطالعنا بأسرار بالفعل ، وليس بمجرد حروف تشابكت كيفما اتفق ، وانما هي بعض التحديات التي تحدانا بهـــا القرآن ووعدنا بأن يأتي تأويلها في آخر الايام ٠

ونظريات المفسرين في هذه الحروف كثيرة ومختلفة ٠

البعض يقول ان الله يقسم بهذه الحروف في مطالع السور ٠

والبعض يقول أنها تؤلف فيما بينها اسم الله الاعظم الذى احتفظ بسره لنفسه ٠

والبعض يقول أنها مجرد مفردات ٠٠ يقول لنا الله أنه خلق منها ومن مثلها القرآن ٠٠ فيقدم لنا لبنات البنـــاء وخاماته

قبل أن يرينا البناء فى كماله وتمامه ·· على سبيل الاعجاز ·
وكلها ضروب من التخبط ·

وأولى بنا أن نقول : لا نعلم ·

وما كان لنا أن نحيط بالقرآن في جيل واحد أو أجيال ··
وقد نزل القرآن لكل العصور ·· ليبوح بسره على مدى عمر
الدنيا فيكاشف كل مفسر بقطرة من بحره ·

ومازال القرآن يعطى كل من جاهد فى تفهمه ·· ومازال
يفتح قلبه لكل من فتح له قلبه ·

لماذا .. أعجاز القرآن

القرآن كتاب حافل بالنبوءات .
ومن هذه النبوءات ما تحقق فى وقته .
ومنها ما هو فى انتظار ميعاده .
عن وقعة بدر .. وهى وقعة حربية التقى فيهـا المسلمون وهم قلة بكثرة هائلة من جند الكفار نزل الوحى مبشرا :

« واذ يعدكم الله احدى الطائفتين أنها لكم »
(الأنفال ـ ٧)

« سيهزم الجمع ويولون الدبر »
(القمر ـ ٤٥)

وقد حدث .
وقبل دخول مكة .. حينما كانت العودة الى الكعبة حلمـا بعيد التحقيق يراود المسلمين فى مهجرهم بالمدينـــه .. جاء الوحى ليؤكد ما رآه النبى فى رؤياه :

« لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المســجد الحرام ان شاء الله آمنين محلقين رؤسكم »
(الفتح ـ ٢٧)

وقد حدث .
وعن انتصار الروم بعد هزيمتها نزلت النبوءة :

« غلبت الروم فى أدني الأرض وهم من بعـــد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين »

(الروم - ٢ ، ٣ ، ٤)

ولفظ بضع يستعمل في اللغة لما هو أقل من عشرة وأكثر من ثلاثة .. وقد حدث أن انتصرت الروم بعد سبع سنوات من هزيمتها .

ثم وعد اسرائيل الذى قال فيه القرآن مخاطبا اليهود :

« لتفسدن فى الارض مرتين ولتعلن علوا كبيرا »

(الاسراء - ٤)

وهاهى اسرائيل تعلو وتطغى للمرة الثانية علوها الكبير الذى تحلم فيه باجتياح النيل والفـــرات .. وهــو علو الى انخفاض وهزيمة كما قال القرآن .

هذا غير نبوءات قادمة تنذر باقتراب الســـاعة .. مثل انشقاق القمر وظهور الدخان .. الى آخر ما ذكرنا .

فاذا لجـأ القرآن الى الجدل فهو يجادل فى بســـاطة ويقيم الحجة فى احكام .

يقول عن الكافر الذى لا يصدق أنه سوف يبعث :

« وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم .. قل يحييهـا الذى أنشـأها أول مرة وهو بكل خلق عليم »

(يس - ٧٨ - ٧٩)

« أفعيينا بالخلق الأول بل هم فى لبس من خلق جديد ؟ »

(ق - ١٥)

وليبرهن على وجود الخالق لا يلجأ الى صفحات من الحذلقة الفلسفية وانما هو مجرد سؤال يوقع به الكفار فى اشكال :

« أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون »

(الطور ــ ٣٥)

ومازال الاشكال باقيا بالرغم من خمسة آلاف سنة من تطور الفلسفة .. ومازال السؤال بلا جواب .

فاذا أراد أن يشرح للناس الحقيقة الفلسفية الأوليه بأن لكل شيء مظهرا زائلا وجوهرا باقيا فانه لا يبنى حبائل من المنطق ولا شراكا من الحجج كما يفعل الفلاسفة المحترفون وانما هو يستدرجك الى الحقيقة بمثل بسيط :

« فاما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الارض كذلك يضرب الله الامثال »

(الرعد ــ ١٧)

فاذا أراد أن يفحم ويلجم ألقى بمثل آخر .

« يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وان يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب »

(الحج ــ ٧٣)

وهو مثل مازال معجزا للعلم والعلماء بعد الف سنة من تطور العلم والتكنولوجيا .

فمن يستطيع أن يخلق ذبابة على هوانها وتفاهتها ؟

واذا سلبتك الذبابة حياتك بمرض تنقله اليك فمن يستطيع ان يرد لك تلك الحياة .

بل انها لو سلبتك ذرة من النشا من طعامك .. فان عباقرة الكيمياء لو اجتمعوا لا يستطيعون استرداد هذه الذرة من أمعائها لأنها تتحول فورا الى سكر بفعل الخمائر الهاضمة .

فما اضعف الطالب والمطلوب ٠

ما اضعف عبقرى الكيمياء ٠٠ وما اهون الذبابة ٠٠ وماتفه ذرة من النشا ٠٠ فى عالم هائل بلا حدود ٠٠ بل عوالم وافلاك مترامية خلقها الخالق الذى احاط بكل شيء علماً ٠

بهذه البساطة المعجزة الملغزة يتعرض القرآن لأعقد القضايا فيوصلها لابسط الاذهان ٠

والنفس فى القرآن تموت شأنها شأن البدن :

« كل نفس ذائقة الموت »

(آل عمران ـ ١٨٥)

« وما كان لنفس ان تموت الا باذن الله »

(آل عمران ـ ١٤٥)

« ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق »

(الانعام ـ ١٥١)

والنفس فى القرآن هى مجمل الرغبات والغرائز والاهواء ٠

« ان النفس لأمارة بالسوء »

(يوسف ـ ٥٣)

« وكذلك سولت لى نفسى »

(طه ـ ٩٦)

ويمكن أن تأتى بمعنى النفس المتعالية اللوامة ٠٠

« لا اقسم بيوم القيامة ولا اقسم بالنفس اللوامة »

(القيامة ـ ١ ، ٢)

ولكن الروح فى القرآن غير النفس ٠٠ وهى السر الالهى الباقى الذى لا يجرى عليه قدر الموت ٠

« ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم الا قليلا »

(الاسراء - ٨٥)

والروح فى الفلسفة لغز .. وهى أمر لا يمكن اثباته بالشواهد والأدلة الحسية على وجه القطع .. ولا يمكن انكاره الا تعسفا .. ولا يمكن تجاوزه الا جهلا ..

وهى تبقى بعد ذلك قضية القضايا التى يقف أمامها علمنا المحدود مكتوف اليدين .. وهى أعصى بكثير من قضية وجود الخالق .

وما قاله القرآن فى قصة الخلق وفى السماوات والارض وفى الغيب وفى الاخلاق والتشريع والسياسة والحرية والمسئولية والعبادات ذكرناه بالتفصيل فى المقالات السابقة ولا داعى للتكرار .

والذين يكتبون عن اعجاز القرآن يعدون دائما تلك الحيثيات من تنبؤ القرآن بما لا نعلم من أمر مستقبلنا ورؤايته لتاريخ ما لا نعلم من أمر ماضينا الى جانب تلك الموافقات العجيبة مع علوم عصرية متأخرة جاءت بعد نزول آياتها باكثر من ألف عام .. الى جانب الكلام باحاطة فى كل ما يشكل من أمور الحكم والاخلاق والتشريع وما وراء الطبيعة .

ولكننى أرى أن اعجاز القرآن هو بالدرجة الأولى ما يستثيره فى القلب من احساس غامض .. لمجرد أن تصطف الحروف فى السمع بهذا النمط الفريد .. ذلك العزف بلا آلات وبلا قواف وبلا بحور وبلا أوزان .

حينما نصغى الى ما يقوله زكريا لربه فى سورة مريم :

« رب إنى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا ولم أكن بدعائك رب شقيا »

(مريم - ٣)

أو نستمع الى كلام المسيح فى المهد :

« انى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا ٠٠ وجعلنى مباركا أينماكنت وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حيا »

(مريم ـ ٣٠ ـ ٣١)

أو تلك الجملة الموسيقية التى تتحدث عن خشوع الرسل :

« اذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا »

(مريم ـ ٥٨)

أو تلك النغمة الرهيبة التى تصف اللقاء بالله يوم القيامة :

« وعنت الوجوه للحى القيوم وقد خاب من حمل ظلما »

(طـه ـ ١١١)

أو ذلك الايقاع الرحمانى الذى يخاطب الله به نبيه محمـدا فى موسيقى عذبة تملك شغاف القلب :

« طه ما أنزلنـا عليك القرآن لتشـقى الا تذكرة لمن يخشى تنزيلا ممن خلق الارض والسموات العلى الرحمن على العرش استوى له ما فى السـموات وما فى الارض وما بينهما وما تحت الثرى وان تجهر بالقول فانه يعلم السر وأخفى الله لا اله الا هو له الأسـماء الحسـنى »

(طـه ـ من ١ الى ٨)

فاذا تحول القرآن الى الحديث عن المجرمين وما آنزل بهم من عذاب ٠٠ تحولت الموسيقى الى أصوات نحاسية تصـك الأذن وتحولت الكلمات الى جلاميد صخر وكأنها رجم ٠

« انا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى يوم نحس مستمر تنزع الناس كأنهم اعجاز نخل منقعر »

(القمر ـ ١٩ ، ٢٠)

فاذا سبحت الملائكة طالبه من الله المغفرة للمؤمنين سالت الكلمات كأنها سبائك الذهب .

« ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك »

(غافر - ٧)

فاذا جاء الانذار بالساعة .. فان الهول والشؤم يطل من الكلمات المتوترة والعبارات المشدودة :

« وأنذرهم يوم الآزفة اذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع »

(غافر - ١٨)

ثم العتاب وأى عتاب حينما لا ينفع العتاب :

« يا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم الذى خلقك فسواك فعدلك فى أى صورة ما شاء ركبك »

(الانفطار - ٦ - ٧ - ٨)

والبشرى .. حينما تبشر الملائكه مريم بميلاد المسيح :

« يامريم ان الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين »

(آل عمران - ٤٥)

ثم ذلك الصراخ فى الاذن بتلك الكلمه العجيبة التى تشبه السكين :

« فاذا جاءت الصاخة يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه »

(عبس من ٣٣ الى ٣٧)

ذلك التشكيل والسبك والتلوين فى الحروف والعبارات فى

معمار ... هو نسيج وحده .. بلا شـــبيه .. من قبل أو من بعد .

كل ذلك يتم في يسر شديد لا يبدو فيه آثر اعتمال وافتعال واعتساف .. وانما تسيل الكلمات فى بساطه شديدة لتدخل القلب فتثير ذلك الاحساس الغامض بالخشـــوع من قبل أن يتيقظ العقل فيحلل ويفكر ويتأمل .. مجرد قرع الكلمـــه للأذن وملامستها للقلب ، تثير ذلك الشيء الذى لاأجد لهتفسيرا

هذه الصفة فى العبارة القرآنية الى جانب كل الصـــفات الاخرى مجتمعة هى التى تجعل من القرآن ظاهرة لا تفسير لها فيما نعرف من مصادر الكلام المألوف ..

ان أقصى ما فى مستطاع مؤلف أو أديب أن يعبر عن نفسه أو يخبرك عن نفسك وعن بيئتك ومجتمعك .. أو يروى لك تاريخ ما حفظه التاريخ . أو يحدس لك المستقبل من شواهد ودلالات الحاضر ... فى عبارة أقصاها أن تكون قصيدة شعر أو مقامة أو قصة أو مسرحية .

أما القرآن فهو يختلف عن كل هذا .. وهو معجـزة لأنه يخبرك عن ماض لم يؤرخ ويتنبأ بمستقبل لم يأت ولم تقم عليه الشواهد ... ويدلك على علوم لم تعلم بعـــد .. وعن غيب محجب مطلسم لم يكشف الا لقلة من المخصوصـــين من أهل التصوف ... فاذا رأى هؤلاء فهم يرون ما يوافق كلمة القـرآن واذا طالعوا فلا يطالعون الا ما يطابق أسراره ..

ثم هو يقدم اليك حكمة الازل ودستور الحياة الامثل وفلسفة فى الاخلاق والحكم واللاهوت وما وراء الطبيعة وفى المعاملات وفى الزواج والمعاشرة والحرب والسلم وشرائع العبادات فى أسلوب منفرد وعبارة شامخة البنيان وجمال بلاغى هو نسيج وحده لا هو بالشعر ولا بالمقامة المنثورة .. ليس له شـــبيه سابق ولا تقليد لاحق ... يلقيه الوحى فى تحـد باق عـــلى الأعصر والدهور .

« وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة »

(البقرة — ٢٣ ، ٢٤)

هكذا يتحدانا القرآن أن نقلد ولو سورة ثم يقول لنا يقينا أننا لن نفعل ٠٠ وهو بذلك يورد خبرا صادقت عليه الايام والسنون ٠٠ فلم يحفظ لنا التاريخ على مدى قرابة ألف وأربعمائة سنة تقليدا واحدا للقرآن رغم كثرة حساده وأعدائه ومازال التحدي قائما — ومازال القرآن يفضي بأسراره ويكشف لنا مكنوناته فيزداد اعجازا ٠

« سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق »

(فصلت — ٥٣)

وهو تحد آخر بأن مستقبل الايام سوف يصادق على آيات مازلنا نقرؤها على أنها أسرار مطلسمة وغيوب محجبة ٠

« أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا »

(النساء — ٨٢)

انه الانضباط والاحكام في كل لفظة وفي كل حرف ٠٠ لا تتقدم كلمة على كلمة الا بسبب ولا تتأخر كلمة عن كلمة الا بسبب ٠٠ وكمثل بسيط نجد أن القرآن يذكر السمع مقدما على البصر في عديد من الآيات ٠٠ وهي مسألة يعرف سرها الآن علماء الفسيولوجيا والتشريح فهم وحدهم يدركون أن جهاز السمع أرقى وأعقد وأدق وأرهف من جهاز الابصار ويمتاز عليه بادراك المجردات كالموسيقى وادراك التداخل مثل حلول عدة نغمات داخل بعضها البعض مع القدرة على تمييز كل

نغمة على انفراد كما تميز الام صوت بكاء ابنها من بين زحام هائل من آلاف الاصوات المتداخلة ‥ يتم هذا فى لحظة زمن‥ أما العين فهى تتوه فى زحام التفاصيل ولا تعثر على ضالتها ، يتوه الابن عن عين أمه فى الزحام ولا يتوه عن سمعها ·

والعلم يمدنا الآن بآلف دليل على تفوق معجزة السمع على معجزة البصر ·

ولم يكن هذا العلم موجودا أيام نزل القرآن ·

ومع ذلك يذكر لنا القرآن السمع مقدما على البصر بطريقة ملفتة وفى أكثر من سبعة عشر موضعا ·

«وجعل لكم السمع والابصار والأفئدة لعلكم تشكرون»

(النحل — ٧٨)

« أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحى من الميت »

(يونس — ٣١)

« وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة »

(الأحقاف — ٢٦)

« حتى اذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم »

(فصلت — ٢٠)

« أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا »

(مريم — ٣٨)

« وهو الذى أنشأ لكم السمع والابصار والافئدة »

(المؤمنون — ٧٨)

«ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا»

(الاسراء — ٣٦)

« وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم »

(فصلت — ٢٢)

« قل أرأيتم ان أخذ الله سمعكم وأبصاركم »

(الانعام ـ ٤٦)

« ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم »

(البقرة ـ ٢٠)

« أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم »

(النحل ـ ١٠٨)

ويبدو هنا من تقديم القلب أن الترتيب هو ترتيب تفاضل ٠

«فما أغنى عنهم سمعهم ولاأبصارهم ولاأفئدتهم من شيء»

(الأحقاف ـ ٢٦)

« أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم »

(محمد ـ ٢٣)

« ان الله كان سميعابصيرا »

(النساء ـ ٥٨)

« أنا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا »

(الانسان ـ ٢)

« ليس كمثله شيء وهو السميع البصير »

(الشورى ـ ١١)

« والله يسمع تحاوركما ان الله سميع بصير »

(المجادلة ـ ١)

بهذا التكرار المتعمد يذكر القرآن السمع مقدما على البصر رغم أن النظرة العامية الى الامور تنظر الى البصر والابصار

بالجلال أكثر ... وزعم أن علوم التشريح والفسيولوجيا التى اهتدت الى الحقيقة لم تكن معروفه آنذاك ٠

اننا اذن أمام كلمات مصفوفة باحكام ودقه وانضباط « كتاب أحكمت آياته » لا تتقدم كلمة على كلمة الا بسبب ولا تتأخر الا بسبب ٠

وأحيانا يكون انتقاء الكلمة لتتوافق مع التعبير معجزة بيانية فى ذاتها ٠٠ كما يقول القرآن عن الرياح :

« وأرسلنا الرياح لواقح فانزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين »

(الحجر ـ ٢٢)

هذه الصفة بأن الرياح لواقح تستدعى وقفة تأمل طويله ٠

فالرياح البارزة تثير سحابا ٠٠ وهى تدفع السحب المكهربه الى لقاء بعضها البعض ٠٠ تلقى بالسحابة السالبة التكهرب بين أذرع سحابة أخرى موجبة التكهرب فيحدث البرق والرعد ويسقط المطر ٠٠ وما اشبه ما يحدث بالتلقيح ٠

فهى تلاقح بين السحب فيكون برق ورعد ومطر ٠

وينزل المطر على الارض فيخصبها ٠٠ وهو تلقيح من نوع آخر بين الماء والارض ٠ وتحمل الرياح حبوب اللقاح من زهرة لتلقى بها الى مبيض زهرة أخرى فيكون تلقيح من نوع ثالث هذه المرة ٠٠ تلقيح بالمعني الحرفى للآية ٠

فنحن أمام كلمه صادقه مجازا وصادقة حرفيا وعلى أى صورة قلبتها تصدق معك وهى بعد هذا كلمه جديدة وغريبه وصفة مبتكرة حينما توصف بها الرياح وهى من الناحيه الجمالية الايقاعية ذروة ٠٠ وفى النطق عذبة : « **وأرسلنا الرياح لواقح** » تنطقها وتلوكها فى فمك فتستوقف السمع وتطرب الاذن ٠

وكل هذا العلم التفصيلى فى تكهرب السحاب وانتقال حبوب اللقاح لم يكن معلوما أيام نزول الآيه ٠

وحمل المفسرون معنى الكلمة على أنه مجاز ·· فالرياح تثير السحاب وتسقط المطر على الارض فتخصبها ·· فهى لواقح بالمعنى المجازى ·

ولكن العلم وضع أيدينا على كنوز البيان فى داخل هذه الكلمة فاذا بالصدق فيها مجازى وحرفى وجزئى وكلى ·· واذا بانتقائها في موضعها معجزة من معجزات الاحكام والدقة فى البيان القرآنى ·

ومثل آخر ·· هذه الآية من سورة العنكبوت :

« مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وان أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون »

(العنكبوت ـ ٤١)

فهنا نرى القرآن يختار صفة التأنيث حينما يتحدث عن العنكبوت فيقول : « **كمثل العنكبوت اتخذت بيتا** »

وقد كشف العلم مؤخرا أن أنثى العنكبوت هى التى تنسج البيت وليس الذكر وهى حقيقة بيولوجية لم تكن معلومة أيام نزول القرآن ·

والحقيقة الثانية هى وصف بيت العنكبوت بأنه أوهن البيوت ·

ولم يقل القرآن خيط العنكبوت أو نسيج العنكبوت وانما قال بيت العنكبوت وهى مسألة لها دلالة ·· ولها سبب ·

والعلم كشف الآن بالقياس أن خيط العنكبوت أقوى من مثيله من الصلب ثلاث مرات ·· وأقوى من خيط الحرير ·· وأكثر منه مرونة ·

فيكون نسيج العنكبوت بالنسبة لاحتياجات العنكبوت وافيا بالغرض وزيادة ·· ويكون بالنسبة له قلعة أمينة حصينة ·

فلماذا يقول القرآن : « **وان اوهن البيوت لبيت العنكبوت** » .
ولماذا يختم بكلمة : « **لو كانوا يعلمون** »

لابد أن هناك سرا .

والواقع أن هناك سرا بيولوجيا .. كشف العلم عنه فيما كشف لنا مؤخرا . فالحقيقه ان بيت العنكبوت هو أبعد البيوت عن صفة البيت بما يلزم البيت من أمان وسكينة وطمأنينة .

فالعنكبوت الانثى تقتل ذكرها بعد ان يلقحها وتأكله .. والابناء يأكلون بعضهم بعضا بعد الخروج من البيض ، ولهذا يعمد الذكر الى الفرار بجلده بعد أن يلقح أنثاه ولايحاول أن يضع قدمه فى بيتها .

وتغزل أنثى العنكبوت بيتها ليكون فخا وكمينا ومقتلا لكل حشرة صغيرة تفكر أن تقترب منه .

وكل من يدخل البيت من زوار وضيوف يقتل ويلتهم ..

انه ليس بيتا اذن ، بل مذبحة يخيم عليها الخوف والتربص ، وانه لأوهن البيوت لمن يحاول أن يتخذ منه ملجأ .. والوهن هنا كلمة عربية تعبر عن غاية الجهد والمشقة والمعاناة . وهذا شأن من يلجأ لغير الله ليتخذ منه معينا ونصيرا .

« **مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء** (أنصارا) **كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وان اوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون** »

(**العنكبوت – ٤١**)

ذروة فى دقة التعبير وخفاء المعانى ومحكم الكلمات وأسرار العلوم مما كان معروفا أيام النبى ومما لم يعرف الا بعد موته بألف عام .. اعجاز قطعى لاشك فيه يتحدى العقل أن يجد مصدرا لهذا العلم غير المصدر الالهى .

وفى سورة الكهف نقرأ مثلا آخر حينما يروى القرآن عن رقدة أهل الكهف :

« ولبثوا فى كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعا »

(الكهف ـ ٢٥)

ونعلم الآن بالحساب الفلكى أن الثلاثمائة سنة بالتقـــويم الشمسى تساوى ثلاثمائة وتسعا بالتقويم القمرى (باليـــوم والساعة والدقيقة) •• وكان التقويم المتبع أيام نزول الآيات قمريا فلزم أن يقول القرآن أن السنوات قد ازدادت تسعا ـ وهو الفرق بين التقويمين وهذا سر لم يعرف الا الآن •

ومثل آخر فى سورة القيامة :

« أيحسب الانسان أن لن نجمع عظامه ، بلى قادرين على أن نسوى بنانه »

(القيامة ٣ ـ ٤)

يقول الله هذا الكلام فى مقام التحدى مشيرا بأن هناك معجزة كبرى فى تسويته للبنان أكبر من احياء العظام وهو امر لم يكشف سره الا بعد نزول الآية بأكثر من ألف سنة حينما عرف أن لكل انسان بصمة خاصة به رسمت على بنانه •• لا يتفق اثنان فى بصمة واحدة منذ أيام آدم حتى التوائم • وهى أمثلة من عشرات الامثلة لاتفسير لها الا أنها جاءت تنزيلا وانها علم الهى وليست علما بشريا •• فأنت امام دقة واعجاز واحكام وعلم شامل •

ما وقفت أمام كلمة قرآنية وحاولت أن تنقلها من مكانها أو تستبدلها حتى أدركت الاستحالة •• وحتى أدركت أنك أمام طراز من الضرورات اللغوية والعلمية يثير الذهول •• وانك امام لون من ألوان الصدق المطلق •

وبعض أسرار الكلمات فهمناها •• وكثير من الاسرار مازالت خافية علينا •

كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه •

وتتسابق العلوم فلا تكاد تلحق بأذياله •

فاذا أضفنا الى كل هذا أن ذلك القرآن المذهل آتي به رجل أمى لا يعرف القراءة ولا الكتابه .. بدوى راعى غنم فى بيئة بدوية من أجلاف البدو فى صحراء جرداء مقطوعه الصلة بالحضارات والعلوم .. فنحن أمام معجزة حقيقية لا يجادل فيها الا مكابر معاند مستغلق المشاعر معصوب العين والوجدان عاقب نفسه بنفسه اذ حجب عن روحه اشعاع الرحمة والحنان والرأفة الذى يشعه ذلك الكتاب الكريم .. رب فلتكن بهرحيما ولتفتح منه القلب : **« فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور »** .

(انتهى)

الغلاف بريشة الفنان محمد حجى

صدر للمؤلف

الله والانسان	(مقالات)
ابليس	(مقالات)
اكل عيش	(مجموعة قصص قصيرة)
عنبر ٧	(مجموعة قصص قصيرة)
شلة الأنس	(مجموعة قصص قصيرة)
رائحة الدم	(مجموعة قصص قصيرة)
اينشتين والنسبية	(دراسة)
الأحلام	(دراسة)
لغز الحياة	(دراسة)
لغز الموت	(دراسة)
المستحيل	(رواية)
الأفيون	(رواية)
العنكبوت	(رواية)
الخروج من التابوت	(رواية)
رجل تحت الصفر	(رواية)
الزلزال	(مسرحية)
الانسان والظل	(مسرحية)
اعترفوا لى	(من رسائل القراء)
٤٥ مشكلة حب	(من رسائل القراء)
اعترافات عشاق	(من رسائل القراء)
الغابة	(عن رحلة فى السودان وكينيا وتنجانيقا)
يوميات نص الليل	مقالات
فى الحب والحياة	مقالات
القرآن	محاولة لفهم عصرى

تحت الطبع

الصحراء	رحلة فى الصحراء الكبرى
غوما	مسرحية
حكايات مسافر	من رحلة المؤلف فى أوروبا

الثمن ٢٥ قرشا

طبعت بمؤسسة روزاليوسف